روايات عبير



آن ميثر

السهم يرتد

١٢٦

١ - الخدعة الأولى

ظنت صوفي انها جنت عندما وافقت على المضي. فماذا كانت تفعل في بورت اوف سباين، وهي تنتظر بقلب مضطرب وصول جد ايف، ليأخذها معه؟ كيف تأملت لعب هذا الدور بمهارة فائقة. فلا بأنك احد انها ليست ايف هوليستر ؟ ألم يكن انتحال شخصية اخرى جرماً؟ أم هل يمكن اعتبار ذلك العمل جرماً حتى عندما يكون الشخص المعني قد اعطاها اذناً للقيام بذلك، لا بل ترجاها في الحقيقة؟ هزت صوفي كتفيها كمن لا حيلة له. كانت راحتا كفيها رطبتين، والعرق يتصبب من عنقها، وساقاها ترتجفان قليلاً. سارت بقلق داخل غرفة الفندق تحاول تهدئة اعصابها، وراجعت مرات عدة ما قالته لها ايف.

قالت لنفسها يجب ان لا اقلق ولكن من دون اقتناع حقيقي. ولم يستق

لعائلة سانت فينسنتي الى أن أتت إيف. فكيف في امكانها التعرف اليها، او
معرفة اي امر عنها سوى ما اختارت ان تخبرها به في رسالتها؟ في اي حال،
فالفتاتان تشبه الواحدة الأخرى قليلاً. كانتا شقراوين، وبينما مال شعر إيف
الى لون فضي خفيف، كان شعر صوفي ذهبي اللون تشوبه خصلات من
لون العسل. كانتا طويلتين نسبياً، ونحيلتين، واذا كانت صوفي ناحلة
اكثر، فذلك بسبب اهمالها الطعام بعض الشيء. اذ لم يكن اجرها القليل
يكفيها للاهتمام بصحتها، بل هناك امور اخرى اعتبرتها اكثر اهمية! صوفي
تعمل مديرة مسرح في سالتشبري. وادركت إيف كم صديقتها تحب [illegible]
لقبولها العمل مقابل ذلك الأجر الزهيد.

تعرفت صوفي الى إيف قبل سنوات اربع، عندما كان عمرها ثمانية
عشر عاماً وهي في عملها الأول في لندن. ومع انها كانت تفضل ان تصبح
ممثلة الا ما قدر لها ان تمثل، ادركت انها تحتاج الى سبل اخرى لتؤمن
معيشتها. لذلك تعلمت الاختزال والطباعة على الآلة الكاتبة وعملت في
احدى محطات التلفزيون المستقلة.

كانت إيف صحافية شابة وناجحة، وصنعت لنفسها اسماً في فليت
ستريت وساعدت صوفي عندما جاءت لتكتب مقالاً عن محطة التلفزيون،
وغدت الفتاتان صديقتين فوراً، رغم تناقضهما. فتحتا بالرفقة من البداية
وعندما اسرّت صوفي الى إيف برغبتها في ان تصبح ممثلة، استخدمت
الاخيرة نفوذها وفتحت لها المجال للعمل كمديرة مسرح في سالتشبري.
وبالطبع، ايقنت صوفي ان إيف لم تتوقع منها البقاء في هذا العمل، لكنها
بقيت، وكانت سعيدة بطريقتها الخاصة خلال الثلاث سنوات ونصف
السنة الماضية. لم يكن لديها الكثير من المال، الا انها كسبت الكثير من
الاصدقاء، كما كانت تمضي عطلات نهاية الاسبوع في لندن مع إيف من
وقت الى آخر. حتى بدت إيف كأنها تحيا حياة اكثر اثارة من صوفي، على
رغم ارتباط الاخيرة بالمسرح. فقد دعيت كثيراً الى الحفلات كما حصلت على
اجازات عديدة لتغطية بعض الاحداث. زاد عدد اصدقائها ولم تكن تمضي
وقتاً طويلاً مع والدها المتقاعد الذي كان يقيم في كينسنغتون.

ولم يكن امام إيف سوى ان تخبر صوفي بأن امها توفيت اثناء ولادتها وان

والدها يلومها...

رأت صوفي في ذلك الوضع مأساة، فقد رعتها جدتها المسنة في طفولتها
ولم تعرف مطلقاً معنى ان يكون لها ابوان. وشعرت عندما تصورت نفسها
مكان إيف بأنها كانت ستجعل من الضروري ان تحاول جهدها لتبرهن
لوالدها بأن وجودها وحبهما يعني تالياً ضرورة اهتمام الواحد منهما
بالآخر. ولكن الأمر لا يخصها. ولم يكن في استطاعتها ان تفعل اكثر من
تذكير إيف احياناً بضرورة اكثار زياراتها لوالدها.

توفي والد إيف قبل نحو ستة اشهر، وحضرت الدفن مع صوفي،
واخبرتها في ما بعد انها يجب ان تبلغ عائلة والدتها بالأمر. كانت هذه هي
المرة الأولى التي سمعت فيها صوفي عن عائلة والدة إيف ودهشت عندما
علمت بأنها عائلة ثرية وتملك مزارع شاسعة في ترينيداد.

وعندما اخبرتها إيف ان والدتها هربت كي تتزوج جيمس هولمستر
وهي في الثامنة عشرة من عمرها، فهمت صوفي لماذا لم تسمع إيف تذكر اي
شيء عن عائلة والدتها. لكنها الآن تعرف القصة كلها. كان والد إيف
مهندساً يعمل في مشروع عمراني في ترينيداد عندما قابل والدتها. واعتبر
جيمس هولمستر بانه غير لائق بالعائلة وغير متكافئ من حيث الثراء مع
عائلة سانت فينسنتي اضافة الى ان والدة إيف كانت مخطوبة لابن عائلة ثرية
اخرى في الجزيرة. لكن إيف قالت، ببعض السخرية، انهما احبا بعضهما
البعض من النظرة الأولى. وهرب الشابان الى انكلترا ولم يعودا الى ترينيداد
ابداً. وبالطبع، قاطع جدها ابنته تماماً، ولم يلن قلبه، حتى عندما علم انها
توفيت وهي تضع مولودتها. انفطر قلب والد إيف لوفاة زوجته، على رغم
رعايته المجردة لإيف. لكنه لم يهتم بها كثيراً. فترعرعت في كنف عماتها
ودرست في مدرسة داخلية، واخيراً مكنتها موهبتها الكتابية من الحصول
على احد المناصب الأكثر اهمية في الصحافة البريطانية.

لم تسمع صوفي المزيد عن سانت فينسنتي الا الاسابيع قليلة خلت،
عندما دعتها إيف الى تمضية عطلة نهاية الاسبوع في شقتها. واخبرتها بأنها
كانت تراسل جدها خلال الشهور القليلة الماضية ويبدو ان قلبه قد لان على
مر السنين لأنه اجابها فوراً على الرسالة المتعلقة بوفاة والدها، وكتب اليها

رسائل عدة.

سرت صوفي لأخبار صديقتها. وظنت ان ايف ستعرف اخيرا بهجة الانتماء الى عائلة حقيقية. لكن ايف كانت غامضة كالعادة. واعترفت بأن فكرة الصلح اول الأمر مع عائلة والدها قد راقت لها، لكن جدها اقترح ان تأتي الى ترينيداد، الى منزله في بوانت ساليت فيتسنى لها قضاء بضعة اسابيع تتعرف خلالها الى اقاربها.

قالت ايف:

- هل تستطيعين ان تتصوري يا عزيزتي ان انقطع انا عن المدنية لبضعة اسابيع! يا للسماء، سوف اجن حتما!

لم تعرف صوفي بماذا تجيب. فمن ناحية كانت تفهم تمنع ايف، فهي ببساطة من النوع الذي لا يستطيع العيش من دون النمط الصاخب في حياتها الراقية. الا انها من ناحية اخرى كتبت رسائل لجدها مهدت فيها لطلبه هذا.

واخيراً سألتها صوفي:

- ماذا تزمعين ان تفعلي اذن؟

- فكرت انك تحبين الذهاب عوضاً عني.

وقبل ان تتمكن صوفي من الاحتجاج، تابعت:

- لا تقولي لا فوراً. فكري في الأمر.

تنهدت صوفي بعمق:

- لا يمكن ان تكوني جادة!

- لم لا؟

- حسناً، لأن الأمر مستحيل!

- لماذا؟

نظرت صوفي الى عيني ايف علها تجد دليلاً على انها تمزح فقط. ولا داعي لأخذ كلامها على محمل الجد.

- ايف!

- اصغي الي يا صوفي. الم تخبريني منذ بضعة اسابيع ان رودريك هارلي ينظم مدرسة صيفية للمغنين في روما هذه السنة؟

- نعم، بالطبع.

- حسناً، الا تحبين الذهاب؟

- انا؟

ونظرت صوفي الى صديقتها مندهشة:

- احضر المدرسة الصيفية؟

- نعم. بامكاني ترتيب الأمر.

- لكن ليس بامكاني تحمل النفقات.

- انا استطيع ذلك.

- آه يا ايف، بحق السماء، ماذا تحاولين ان تقولي؟ اذا ذهبت الى ترينيداد عوضاً عنك ستؤمنين امر ذهابي الى مدرسة رودريك هارلي في الصيف؟

- هذا صحيح.

تنهدت صوفي وقالت:

- ولكن لماذا؟ لماذا تفعلين ذلك؟

نهضت ايف ومشت حافية القدمين على السجادة الوثيرة في الغرفة.

- هل يجب ان يكون هناك سبب؟ انا صديقتك. وظننت ان واحدتنا يمكن ان تساعد الأخرى من دون اسباب كثيرة لذلك.

سحبت صوفي ساقيها امامها:

- انت تعلمين اني افعل اي شيء لأساعدك يا ايف. ولكن هذا الأمر مختلف.

- كيف ذلك؟

- انت تعلمين كيف.

ونظرت صوفي الى ثقب صغير في سروالها محاولة عدم التفكير في العرض الذي كانت ترفضه.

- لا اعلم.

حدقت بها ايف واسندت جسمها بكسل الى رف الموقد واضافت:

- ما انا اعرضه عليك ليس فقط فرصة لحضور المدرسة الصيفية بل ايضاً عطلة لأسابيع عدة في احدى الجزر الأكثر اثارة في العالم. ظننت

انك ستقبلين بحماسة.

- هل كنت تقبلين انت؟

اجابت ايف:

- نعم، اقبل. حقيقة يا صوفي اين روح المغامرة لديك؟ الا تريدين رؤية شيء من هذا العالم وتستمتعين به قبل ان تصبحي اكبر سناً؟ لن تحققي شيئاً وانت تعملين في مسرح من الدرجة الثالثة في سالتشترش!

تخضبت وجنتا صوفي وقالت:

- ليس مسرحاً من الدرجة الثالثة. وانا مسرورة لانك ذكرتني باني اعمل هناك!

- في امكانك اخذ اجازة من العمل.

قالت ايف بنفاد صبر واضافت:

- بتقديم الاستقالة، هذا كما تعلمين.

كان في امكان ايف ان تكون قاسية اذا عارضها احد، وصوفي على علم بذلك منذ بداية صداقتهما، فحاولت الا تتأثر بما قالته. وادركت انها تتبع هذا الاسلوب لتقنعها بتغيير رأيها، وبدت ايف مدركة ان اسلوبها لن يوصلها الى نتيجة، فتنهدت ثم قالت معتذرة:

- اني آسفة يا صوفي. انا سيئة. لكني كنت اعتمد عليك لاخراجي من هذه الورطة.

ونظرت صوفي اليها قائلة:

- اي ورطة؟

هزت ايف كتفيها وبحثت عن علبة السكائر. ادمتها الى صوفي التي اعتذرت، لانها نادراً ما تدخن الا اذا عانت من توتر عصبي في ليلة افتتاح احدى المسرحيات.

- لقد وافقت على الذهاب الى بوليني سانت نيستي.

سألت صوفي بدهشة:

- ولكن لماذا؟

هزت ايف كتفيها، قائلة:

- آه، انت تعلمين كيف تحدث مثل هذه الاشياء. يبدأ الواحد منا امراً

كهذا، لكن سرعان ما يفلت زمام الامر من بين يديه.

- ولكن كان عليك التأكد اذا كنت تريدين الذهاب ام لا؟

- انت لا تفهمين. فقد جدي في رسالته بانني اود الذهاب الى ترينداد. ويبدو واضحاً انه ندم كثيراً على ما حدث قبل خمسة وعشرين عاماً، ويريد التعويض عن ذلك الآن. اعتقد انه يراني يتيمة ووحيدة ومن دون عائلة بعد وفاة والدي.

- في الواقع، هذا صحيح.

- نعم، ولكن ليس كما يعتقد هو. اعني... اخر امر ارغب فيه هو والد هرم يراقب تحركاتي!

وتنهدت صوفي. كان واضحاً ان الصورة التي كونها جد ايف عنها مختلفة لدرجة عظيمة عن حقيقتها. ثم قالت لها:

- ما عليك الا ان تكتبي وتبلغيه بأن عملك لن يسمح لك بالذهاب في هذا الوقت.

اجابت ايف باصرار:

- لا، لا اريد ان افعل ذلك.

- لماذا؟

- حسناً... لا تغضبي اذا قلت لك.

- اذا قلت ماذا؟

واسندت صوفي ذقنها الى يدها.

- حسناً، هم لا يعلمون اني صحافية.

- ماذا؟

- انها الحقيقة. كانت لعبة لعبتها

- لعبة؟

- نعم.

ثم اضافت ايف بتردد:

- عندما كتبت اخبر جدي بوفاة ابي، لم اذكر طبيعة عملي، وعندما رد على رسالتي كان واضحاً انه ظن انني اعمل كسكرتيرة. وتركته يستمر في اعتقاده هذا.

- ولكن لماذا؟
- آه، اعتقد انني لو اخبرته كوني صحافية لتحطمت الصورة التي كونها عني.
- بأي طريقة؟
- حسناً، الصحافيون... وخاصة النساء، هم عادة من النوع الواثق من ذاته والقاسي الذي تجاوز الصبر. وعلمت ان جدي لن يستجيب لانسان من هذا النوع، لذا تظاهرت انني اعمل سكرتيرة.
- آه، إيف!
عبرت إيف كتفيها. فعادت صوفي تسأل:
- وماذا في ذلك؟ ثم ما علاقة هذا الأمر بعطلتك؟
- جدي رجل عجوز، اسعدته رسائلي، واعتادت انه لك بنفسه. اذا رفضت الذهاب الآن، فهل في وسعك ان ترى اثر ذلك عليه؟
احنت صوفي ظهرها. بالطبع، كان في امكانها ان ترى ذلك جيداً. تعلق هذا الرجل بإيف وبالراحة التي وجدها في رسائلها، والأمل على رؤيتها والقضية لواخر ايامه معها. فكيف سيكون في وسعها ان تخيب امله الآن؟
شعرت صوفي بإيف تحدق فيها، وقالت لها وهي تهز بضعف:
- عليك الا تذهبي.
- لكني لا استطيع.
- تعنين انك لن تذهبي.
- كلا اعني انني لا استطيع. هذا من اي امر آخر، لدي مهمة قريباً مع جون فيلوز تعرفين من هو جون فيلوز، أليس كذلك؟
كانت صوفي قد سمعت به واومأت برأسها وتابعت إيف حديثها:
- حسناً، عرضت علينا انا وجون فرصة الذهاب الى الشرق الأوسط. الصحيفة تريد منا تحضير سلسلة مقالات عن رجال الدولة في الشرق الأوسط. واذا نجحت المهمة فمن يعلم الى اين قد تؤدي؟
اشارت صوفي بيدها معترضة وقالت:
- رويدك لحظة. رويدك. فأنا لا شك في هذا الأمر. تبدو رحلتك عظيمة،

اعني رحلة الشرق الأوسط، ولكن في ما يختص بجدك...
- يا عزيزتي، هل ستحرمينني فرصة العمل مع جون؟ هذا ما كنت اخطط له منذ اعوام.
- إيف، لا علاقة لي بالأمر! لا يمكنك فعل الأمرين معاً، عليك ان تختاري.
ساد الصمت فترة طويلة ثم قالت إيف بتمهل:
- وانا اعتقدت انك صديقتي!
- انا صديقتك.
- الأصدقاء يتعاونون. كما ساعدتك انا عندما اردت ترك عملك في الطباعة والانضمام الى الشركة المسرحية.
حدقت صوفي فيها غير مصدقة:
- ولكن ذلك الأمر يختلف تماماً.
- كيف ذلك؟ من دون مساعدتي لكنت الى الآن تعملين على الآلة الكاتبة في اغلب الظن. ان شق طريقك بمفردك في عالم المسرح ليس بالأمر السهل.
- اعلم ذلك، ولكن...
- ولكن ماذا؟ كنت ستتمكنين من ذلك في اي حال؟
- لم اقل ذلك.
شعرت صوفي بالصدمة:
- إيف، هل تدركين ما تطلبين مني القيام به؟
- نعم. لن اطلب منك الكثير، بضعة اسابيع في مزرعة في جزر الهند الغربية متظاهرة بانك انا. وربما تساعدين رجلاً عجوزاً على الموت بسعادة.
- تجعلين الأمر يبدو شديد السهولة!
- انه سهل. اين المشكلة؟ لم يقابلوني قط. لا يعلمون عني اي شيء سوى ما اخبرتهم انا اكتب في رسائلي. تقولين انك ترغبين في ان تصبحي ممثلة. حسناً، هذه فرصتك لتبرهني مقدرتك. يمكنها هناك العزبة الصيفية في روما بانتظارك.

مررت صوفي اصابعها في شعرها الكثيف المسدل على كتفيها، وقالت:

- انك تعقدين الأمور يا إيف!

انتهزت إيف الفرصة واقتربت من صوفي وامسكت يديها وقالت:

- يا عزيزتي، انا لا اريد ابتزازك، ولكن ألا تستطيعين ان ترى انه بامكانك القيام بالأمر! الا ترغبين ان تكوني مسؤولة عن ادخال بعض السعادة الى حياة برافدت سالت فيستي؟

رف جفنا صوفي وقالت بدهشة:

- برافدت سالت فيستي؟ هل هذا اسم جدك؟

اومأت إيف برأسها علامة الإيجاب. عادت صوفي تسأل:

- هل لديك ... جدة؟

هزت إيف رأسها نفياً.

- كلا، ماتت قبل نحو عشر سنين.

- وهذا الرجل المسن ... هل يعيش بمفرده؟

- كلا، هناك ابنه ... خالي، الدمير أوج.

قالت صوفي محاولة ألا تظهر اهتماماً

- اوج؟ ويعيش مع جدك؟

- نعم.

- وهو غير متزوج؟

- انه ارمل. اتصور انه مدير اعمال جدي. لا بد انه في منتصف العمر الآن.

- هل ... هل هما العائلة كلها؟

- كلا. هناك عمة امي روزاليند وينادونها روزا على ما اعتقد. هكذا اشار جدي الى اسمها في رسائله.

سحبت صوفي يدها من يد ايف، وازاحت الشعر عن وجهها.

- اهذا كل شيء؟

- حسبما اعتقد. في اي حال، لن ... من المتوقع ان تعلمي اكثر مما ذكر في الرسائل. في امكانك قراءتها اذا احببت، وجدتها مسلية بكل التفاصيل مباشرة.

- كلا، شكراً.

قالت صوفي ذلك وشعرت بشيء من النفور من الفكرة، فقد كتب جد إيف تلك الرسائل بصدق. ولم يكن يتوقع ان تعرض رسائله على اصدقائها.

نظرت ايف اليها بنفاد صبر وسألتها:

- حسناً؟ هل ستفعلين؟

هزت صوفي رأسها وقالت:

- لا ادري، حقاً لا ادري. اعطني بعض الوقت لأفكر بالأمر.

ولكنها بالطبع كانت قد قبلت ضمناً. كما علمت ايف منذ البداية. حاولت صوفي ان تقنع نفسها بأن دوافعها كانت في الأساس تجنيب برافدت سالت فيستي، الاصابة بخيبة امل. لكنها في داخلها حاورت نفسها لأن دعابة المقترح الى مدرسة الممثلين الصيفية، هو الذي ساعد في تقبلها فكرة الذهاب.

والآن ها هي في غرفة الفندق في بورت اوف سباين. تنتظر بنفاد صبر مجيء جد إيف ليلتقي حفيدته المفقودة. كانت ايف قد اقترحت عليها الانتظار الى حين وصولها الى بورت اوف سباين ثم الاتصال بعائلة سالت فيستي. فبهذه الطريقة تتجنب تعرضها الى اي ارتباك في معاملات الدخول الرسمية. واندهشت صوفي من قدرة ايف على الانحراف لما تطلب الأمر منها ذلك. واخذت تتساءل عن مدى معرفتها لها بعد كل هذه الأعوام.

وقفت قرب النافذة تنظر الى الشارع المزدحم. كانت ايف قد الحت عليها ان تقيم في فندق فخم يقع في وسط المدينة باهظ الكلفة جداً. وتساءلت صوفي اذا كان في امكانها الاستمرار في الاقامة فيه اكثر مما توقعت من دون ان يأتي ذلك على ما لديها من نقود. واخافها الازدحام البشري الذي رأته من النافذة بعض الشيء. وهي لم تكن سافرت كثيراً من قبل، وشعورها الآن بأنها لم تكن تعرف اي شخص بين جميع هؤلاء الناس الشرقي الجنسيات والأعراق كان شعوراً غريباً.

رأت نساء هنديات يلبسن الساري، ورجالاً اميركيين يلبسون قمصاناً

ترمز إلى جزيرة هاواي وقبعات من القش ورجالاً يعتمرون العمامات والطرابيش، وفتيات صينيات جميلات ذوات بشرة زيتونية اللون يلبسن ثياباً رائعة التصاميم، ونساء افريقيات يحملن رزماً هائلة على رؤوسهن برشاقة طبيعية. وصدحت ابواق السيارات وصوت اجراس الدراجات الهوائية، اما الذين كانوا مسرورين الى درجة كافية لركوب الباصات الزاهية الالوان، فتعلقوا بالأبواب يقفزون من الباص واليه حيثما احبوا. عكس المنظر اثارة ومتعة كانتا غريبتين عن صوفي تماماً. وفجأة رن جرس الهاتف عالياً قرب السرير، كادت صوفي ان تقفز من الهلع. واستدارت تنظر اليه وشعرت بخوف حقيقي يجتاحها. فحالة سانت فينسنتي كانت الوحيدة في هذا المكان التي عرفت انها موجودة في بورت اوف سبين ولا بد ان هذه المكالمة لها علاقة بها. فجأة شعرت بانها لا تستطيع الاستمرار وسمعت الهاتف يرن ويرن في موجات خوف غير معقولة اجتاحتها.

توقف الرنين واعادها الصمت الذي تلاه الى رشدها. وانهارت يداها الى جانبيها، واخذت تتنفس بعمق محاولة تهدئة اعصابها المضطربة. كان عليها الاجابة على المكالمة، قالت لنفسها بحزم. ماذا لو ان عاملة الهاتف فكرت في ان تنظر الى اسم من يشغل الغرفة ذات الرقم ٣٧٥؟ ماذا لو اكتشفت انها ليست الآنسة هوليستر بل الآنسة سلاتر؟ اضطرب قلب صوفي وعبرت الغرفة بسرعة وجلست على حافة السرير ورفعت سماعة الهاتف.

كانت هذه فكرة منحرفة اخرى من افكار ليف: ان تقيم في فندق كبير لا يتذكر العاملون فيه اسماء جميع النزلاء، ومن ثم تضع رقم الغرفة فقط في رسالتها الى سانت فينسنتي. وبالطبع، كان عليها حجز غرفة باسمها الحقيقي، لأنهم طلبوا جواز سفرها للتحقق من شخصيتها. ولكن ماذا يمكن ان يحدث الآن اذا كانت عاملة الهاتف تبحث في سجلات الفندق وتبلغ الشخص الذي يحاول الاتصال بها انه لا يوجد احد باسم هوليستر في الفندق؟

عندما اجابت عاملة الهاتف، قالت صوفي:

- هل كنت تحاولين الاتصال بي؟ اخشى انني كنت في الحمام.

- الآنسة هوليستر؟

سألت عاملة الهاتف بتهذيب:

- نعم.

وعقدت صوفي اصابعها.

- هناك خط في انتظارك يا آنسة هوليستر.

اخبرتها عاملة الهاتف بنعومة. ثم تابعت:

- حاولنا معرفة مكانك. هناك رجل في الردهة ينتظر ان يراك. السيد سانت فينسنتي.

سانت فينسنتي! كاد ذكر الاسم ان يحطم كل ثقتها الضعيفة بنفسها. انه الآن في الردهة. لم تتوقع منه المجيء قبل ان يتصل بها اولاً.

واستطاعت ان تحافظ على نبرة هادئة في صوتها، وقالت:

- عرفت سوف احضر. اعطني خمس دقائق.

- حسناً جداً يا آنسة هوليستر. سأبلغ السيد سانت فينسنتي انك ستحضرين فوراً.

- شكراً لك.

اغلقت صوفي السماعة ونظرت الى فستانها القطني البسيط الذي كانت ترتديه. هل كانت ليف سترتدي هذا النوع من الملابس في لقائها الأول بخدعها؟ ام هل كان عليها ارتداء ملابس اكثر وقاراً؟ هزت كتفيها. ليف لم ترد لها ان تتصرف بصورة تختلف عن الصورة العادية، وبدا الفستان الأزرق الفاتح ناعماً وجذاباً ينعكس وبشرتها الباهتة.

تنهدت عميقاً ونهضت الى المرآة تنظر الى وجهها. بدا خداها شاحبين وعيناها الرماديتان كانتا تلومانها على ما كانت تزمع القيام به. ولكن ليف دعمها الآن ولن تستطيع التراجع. هي هنا الآن وعليها القيام بعمل تعهدته.

عندما دخلت مصعداً شغله فتى عربي داكن البشرة، ابتسم لها وعلق بمرح على الطقس وهما يهبطان الطوابق الستة التي تفصلها عن الطابق الأرضي.

كانت ترتجف وهي تسير نحو الردهة، ولكن كان عليها الاستمرار.

عبرت قرب طاولة الاستقبال وهي تتفحص الرجال الذين يقفون وحيدين أو جماعات، لكن احداً منهم لم يبد مسناً الى درجة توحي بأنه جد ايف.

موظف الاستقبال شاب نحيل هندي الاصل ابتسم مرحباً عندما اقتربت منه.

- انا . . . انا الآنسة هوليستر.

قالت بصوت اقرب الى الهمس.

- فهمت ان احداً ما ينتظرني.

- آه، اجل يا آنسة هوليستر. ان السيد سانت فينستي ينتظرك في ردهة كينغسوود.

- كينغسوود؟ اين. اين هي؟

- عبر ذلك الممر يا آنسة، تجدين الشارة الى يمينك.

- آه. شكراً لك.

سارت نحو الممر الذي اشار اليه الشاب الهندي، ونظرت حولها ورأت الشارات مضيئة عدة ترشد الضيوف الى انحاء الفندق المختلفة، وكان من السهل عليها رؤية الاشارة، ولكن هل كان من السهل ان تتصرف [illegible] ايف [illegible] في الفندق [illegible] لم تكن [illegible] قبلاً [illegible] ردهة كينغسوود [illegible] الفندق. حتى في هذه الساعة المبكرة [illegible] كينغسوود الى [illegible] مجهزة [illegible] من الارائك المقعرة والمزخرفة. كانت قناديل [illegible] المكان بنورها الخافت وتلقي بظلها على زوايا معينة تجعلها جواً حميماً.

نظرت صوفي ثانية الى فستانها القطني البسيط، وفكرت بانزعاج في انه كان يجدر بها ابداله. في اي حال، نظرت حولها بعينين ضائعتين. اين هو جد ايف؟ حتماً كان عليه ان ينتظر قرب باب الردهة ويراقب وصولها. لكنها لم تر احداً قرب المدخل، لم يكن احد لفترة سوى رجل اسمر يشرب كوباً من الشاي.

ما كادت عيناها تتوقفان عند الرجل حتى ادار رأسه ونظر نحوها وشعرت برعشة خوف تغمرها، من جاذبيته الشديدة التي لم تر لها مثيلاً في حياتها، مع انها رأت شيئاً قاسياً في خط فمه الرقيق. كانت عيناه بلون

عسلي غريب، اجتاحت النظرة صوفي بتمعن وقح.

حولت نظرها بعيداً عنه بسرعة. لم تكن معتادة ان ينظر اليها احد على ذلك النحو ولم تتعرض الى ذلك. اين هو والد سانت فينستي اذن؟ لماذا لا يتقدم ويعرف بنفسه؟ حتماً لو كان هنا لاستطاع ان يرى بوضوح انها كانت تبحث عن شخص ما.

نهض الرجل عن كرسيه واحتسى جرعة من كأسه، واشار بشيء الى الساقي ثم سار نحوها. تسارع نبض صوفي باضطراب وكادت تستدير بعيداً. يا للسماء، فكرت بوجل. انه يعتقد بأني ابحث عن رجل!

- ايف!

ناداها صوت الرجل الجذاب وقد دنا منها. شهقت واستدارت ثانية. كان الرجل واقفاً قبالتها بارتفاع، اصبح الاكثر اثارة عندما اقترب منها، وبالكاد استطاعت صوفي ان تصرح ما ارادت قوله.

- انا . . . انا اعتقد بأنك مخطئ.

بدأت تقول له عندما قاطعها:

- انت ايف هوليستر، اليس كذلك؟

[illegible] ورفع حاجبيه [illegible] صوفي له.

- [illegible] انا هوليستر. ولكن . . . ولكن من انت؟

[illegible] في [illegible] واجاب:

- اسمي آدم سانت فينستي. لا بد ان يكون ابي قد ذكرني في رسالته.

- آدم . . . انت كنت . . . . ابي . . . انت شقيق امي؟

- اعتقد ان لي هذا الشرف.

وشعرت بأنه كان يستمتع بارتباكها.

- اذن هل انت . . . السيد سانت فينستي الذي ينتظرني؟

بالكاد استطاعت ايف استيعاب الامر. هذا الرجل هو آدم سانت فينستي شقيق والدة ايف. الرجل الذي وصفه ايف بأنه ارمل في منتصف العمر!

هزت رأسها. لم يكن آدم سانت فينستي في منتصف العمر. واستبعدت ان يكون الشخص الماثل امامها قد تجاوز الخامسة والثلاثين

وشعرت ان المرأة التي عكستها عيناه العسليتان الغريبتان لم تكنها زوجته!

٢ ـ ثلاثة رجال وصبيّة

ـ هذا صحيح.

قال لها آدم سانت فينسنتي وأضاف:

ـ من كنت تتوقّعين؟

جمعت صوفي انفاسها:

ـ انا . . . أنا ظننت . . . جدي . . .

ـ آه فهمت. آسف لأني خيّبت أملك، ولكنّ والدي نادراً ما يأتي الى بورت اوف سباين. انه لا يحب . . .

ونظر حوله بتمعّن وهزّ كتفيه متابعاً:

ـ هو المكان.

وضغطت صوفي يديها وقالت:

- فهمت.
ظل آدم ينظر إليها بامعان مما جعل خديها يتضرجان.
- الآن أنت أيف. لا تشبهين والدتك كثيراً.
حاولت صوفي أن ترد نظرته.
- أعتقد أني أشبه والدي.
- أعتقد.
أجابها وقد بدا تعبيره متلطفاً.
- حسناً . . . هل نشرب شيئاً؟
ترددت صوفي:
- أنا لا أشرب . . . كثيراً.
- ألا تفعلين؟
وعاد الحاجبان الداكنان يرتفعان وأضاف:
- اعتقدت أن كلّ النساء الصحافيات يستمتعن بالجانب الاجتماعي لعملهن.
- النساء الصحافيات؟
صمتت صوفي ولم تستطع اخفاء صدمتها.
- نعم.
استدار آدم عائداً لملاقاة الساقي واضطرت هي الى اللحاق به، ثم تابع حديثه:
- أنت صحافية، أليس كذلك؟ ثم أنّك أيف هوليستر الأخرى؟
شعرت صوفي بالرعشة فبجملة واحدة حطّم آدم سانت فينستي كلّ الصورة التي خلقتها أيف بعناية عن ذاتها. كان عليها أن يعلم أنّ عائلة مثل عائلة سانت فينستي لن تقبل أيّ غرباء عنها من دون استقصاء. ولكن الى أي درجة تمّ ذلك؟ ومن قام بالمهمة؟
نظرت نظرة جانبية سريعة اليه. بدا مسترخياً الى درجة كافية. لم يكن ثمة حكم في تعليقه. ولكن كيف تستطيع أن تتأكد؟ عاودتها مخاوفها القديمة. كان عليها ألا ترضخ لأيف، وكان عليها عدم الموافقة على المجيء، لأنها لن تفلح بالقيام بما أوكل اليها. أشار آدم عليها بالجلوس على أحد

المقاعد الطويلة بينما نادى الساقي.
جلست صوفي بارتباك محاولة يائسة أن تجد جواباً لما قاله.
جلس آدم قربها بسهولة وأسند مرفقيه الى الطاولة. كان أطول منها بكثير. وعندما اقترب الساقي طلب لنفسه بعض الكولا ثم نظر بتساؤل الى ناحية صوفي وسألها:
- ماذا تشربين؟
مرّرت صوفي لسانها على شفتيها الجافتين، وقالت:
- ليموناضة.
- ليموناضة!
بدا عليه انه يتسلى:
- حسناً وكوباً من الليموناضة أيضاً.
- نعم يا سيد سانت فينستي.
وضعت صوفي يديها على الطاولة لتوقف ارتعاشهما.
نظرت بعصبية الى المنطقة المعتمة حولها، وتحركت ببعض الارتباك على مقعدها. وتساءلت ما اذا كان مدركاً لحالتها العصبية. تناول علبة سيكار طويلة ونظر اليها بامعان.
- اخشى أنه لا يمكنني أن أقدم اليك السيكار.
- أنا... أنا لا أدخن.
- ألا تدخنين حقاً؟
وضاقت عيناه وهو يضع سيكاراً ضخماً بين أسنانه.
- أقرب . . . وأقرب.
اقتنعت صوفي بأنه يلعب معها لعبة القط والفار. فتحت فمها لتقول أن لا داعي لقول المزيد، ولتعترف بالحقيقة. بأنها ليست أيف هوليستر وتزمع على مغادرة ترينيداد على متن أول طائرة مغادرة. ولكن الكلمات لم تخرج بالمرة، اذ قاطعها قائلاً:
- أعتقد أنه يجب أن تناديني آدم، أليس كذلك؟
أطبقت صوفي أصابعها في كفيها.
- أنا . . . أنا أحب.

كان آدم سانت فينسنتي جذاباً الآن واختفى التكبر من عينيه.

ـ هذا ما يتوقعه أبي.

قال لها بهدوء واشعل سيكارة بولاعة ذهبية نفخ دخانه وأكمل:

ـ هذا أمر يعود إليك على ما أعتقد!

عاد الساقي وهو يحمل شرابها. وضع الكأسين أمامهما ثم مسح الطاولة بقطعة قماش نظيفة كأنه ينتظر حدوث أمر آخر. أومأ آدم شاكراً، ثم قال له:

ـ أبلغ صهرك أن يتصل بي هاتفياً وسأرى ما يوسعني فعله.

ـ نعم سيدي وأنا شاكر لك يا سيد سانت فينسنتي.

ـ لا بأس.

وأشار آدم إليه بالانصراف فابتعد ليخدم زبوناً آخر... ثم وجّه آدم انتباهه مرة أخرى نحو صوفي.

ـ والآن. أخبريني، هل كانت رحلتك طيبة؟

استدارت أصابع صوفي حول كأسها كأنه حبل نجاة وأجابت بسرعة:

ـ نعم شكراً لك.

كادت أن تكمل قائلة بأنها لم تعتد السفر بالطائرة كثيراً كي تتعلم الجيد من الرديء في رحلات الطيران، لكنها كانت حذرة مما قد يكتشفه عنها وتابعت:

ـ وصلت مساء أمس.

ـ نعم.

ردّ آدم وشرب بعض الشراب. وانتبهت صوفي إلى أصابعه الطويلة ويديه... يداه لا تشبهان أيدي المزارعين. لكنّ عائلة سانت فينسنتي لم تكن عائلة مزارعين عاديين أم هل هي كذلك؟ قاطع تأملها بقوله:

ـ فرح والدي جداً عند تسلّمه برقيتك. كان عليك إعلامنا بوقت وصولك وكان في استطاعة أحد ما أن يستقبلك في المطار.

ـ أنا... لم أعلم أن الطائرة ستصل في وقت مبكر جداً.

وانخفض صوت صوفي. شربت بعض الليموناضة. وأخبرت نفسها أن هذه مجرد بداية وأن الأمور ستصبح أصعب مما هي عليه الآن بكثير.

ـ لا يهم.

قال آدم مقاطعاً استرسالها. نفث دخان سيكاره فعبقت رائحة تبغ الهافانا حولها.

ـ أنت هنا الآن، وهذا ما يهم. أليس كذلك؟

ـ نعم.

ودّت صوفي لو أنها كانت واثقة كما بدت وسألته:

ـ كم يبعد... بيتك؟

ـ بيوتي سانت فينسنتي؟

سألها وهو يهز كتفيه:

ـ قرابة ثلاثين ميلاً شمالاً من هنا على الساحل.

نظرت صوفي إلى كأسها وقالت:

ـ أنا... أتطلع إلى مقابلة... جدي.

ـ أتوقع منك ذلك.

كانت عينا آدم تخترقانها بهدوء يفقد الأعصاب.

ـ هل أنت مستعدة للذهاب؟

ـ الآن؟

ـ خلال بضع دقائق.

تذكرت صوفي فاتورة الفندق وهي باسم صوفي سلاتر. نبض قلبها بصوت عال مرتفع. ترى ألم يكن في استطاعته أن يسمع نبضات قلبها هو أيضاً؟

ـ إذن انتظرني هنا، سأذهب لأحضر متاعي.

أنهى آدم كأسه، وقال وقد ضاقت عيناه:

ـ حسناً. أنا في انتظارك.

أومأت صوفي برأسها وعبرت خارج الردهة نحو مكتب الاستقبال. كان موظف الاستقبال الهندي قد غادر ورأت مكانه فتاة من جزر الهند الغربية لم تكن رأتها قبلاً. اقتربت صوفي منها وشرحت لها بأنها ستغادر بعد بضع دقائق. كانت الفتاة مهذبة متفهمة. وافقت على تحضير الفاتورة بينما ذهبت هي لتجلب متاعها.

أحست بأن المصعد استغرق دهراً قبل أن يصل الى الطابق السابع، وعلق مفتاحها في القفل ولم يفتح الباب فوراً. وشعرت كأنها تقضي زمناً طويلاً جداً لتجمع اغراضها وتعود الى الردهة ثانية، واندهشت عندما علمت أنّ الامر لم يستغرق أكثر من ربع ساعة.

تركت حقيبتها مع الخادم وعبرت الردهة الى مكتب الاستقبال. ونظرت حولها بسرعة وتأكدت أنّ آدم سانت فينسنتي لم يكن في الجوار. عندما ناولتها الموظفة فاتورتها دفعت صوفي المبلغ من دون أن تنظر اليها. ثم قفلت عائدة الى حيث جلس آدم.

كان آدم سانت فينسنتي لا يزال جالساً ولكن هناك امرأة تجلس مكان صوفي. امرأة ذات شعر أحمر تلبس فستاناً محبوكاً ذا ألوان صفراء باهتة. اقتربت صوفي منها بعصبية. لم يلاحظ أي منهما وجودها ولم تعلم تماماً اذا كان من اللائق أن تقطع عليهما حديثهما.

كان ظهر المرأة يواجه المدخل خلافاً لآدم. وفي اللحظة التي كانت صوفي تزمع فيها على الابتعاد نحوها ادرك فجأة مقدمها. ونظر بدهاء الى رفيقته وقال لها:

ـ هذه هي ابنة اخي يا ساندرا، ايف هولليستر. ايف تعالي تعرّفي على صديقة قديمة.

استدارت المرأة ببطء وصوفي تقترب نحوها، واسندت مرفقها الى الطاولة. كانت اكبر سناً مما ظنّت صوفي في البداية، في الثلاثين من عمرها تقريباً، لكن تصفيفها زادها جمالاً. ملامحها الكلاسيكية شرقية بعض الشيء. نظرت الى آدم من خلال جفون لوزية الشكل دلت على عراقة اوروبية، وهمست:

ـ لم أعلم أنك خال يا عزيزي.

ـ ألم تعلمي؟

قال آدم مبتسماً نصف ابتسامة:

ـ حسناً، يتعلّم المرء شيئاً جديداً كل يوم.

ـ هل يعلم بيرنارد أنّ لديه ابنة عمة؟

ـ أتصوّر أنه يعلم مثل أي شخص آخر.

ردّ آدم بلباقة، ثم وكأنه أدرك أنّ صوفي واقفة تستمع الى الحديث ببعض الارتباك قال:

ـ ايف، اسمحي لي أن أقدم السيدة ساندرا مارش. انا وزوجها شريكان في شركة صغيرة على ساحل الجزيرة الجنوبي.

ـ تشرفنا.

صافحت ساندرا مارش بتردد. وشعرت بنفور من المرأة من غير أن تدري سبب. واستنتجت أن يكون سبب ذلك النظرات التملكية التي كانت تلقيها على آدم سانت فينسنتي. فأموره الخاصة لم تكن من شأن صوفي. لكنها أحسّت بأنّ المرأة التي تعامل شخصاً بمثل ذلك الود الكبير يجب ان يكون من قبل زوجة لها زوجها.

ـ اذن انت ابنة جينيفر!

قالت ساندرا مارش بترفع وأضافت:

ـ وهل سيذبح برنارد العجل السمين على شرفك؟

ـ برنارد؟

شعرت صوفي بحرج في أحاسيسها للحظة ثم تابعت قائلة:

ـ آه تعنين... جدي.

ـ اجل. لا بد أنه لان مع تقدمه في السن. كان دائماً يقسم بأنه لن يسامح أمك ابداً على ما فعلته.

ـ كفى يا ساندرا!

كانت لهجة آدم جافة، واندهشت صوفي كيف استطاعت كلماته أن تحطّم ثقة ساندرا!

ـ والآن، عليك أن تعذرينا. علينا الذهاب.

وضعت ساندرا أناملها الطويلة على كتفه وناشدته:

ـ آه يا عزيزي آدم. بالتأكيد يمكنك البقاء في الفندق لتناول العشاء.

ـ مآسف لا استطيع.

وتحرك آدم بعيداً فهوت يدها الى جانبها.

ـ لكني لم أرك منذ أمد بعيد!

ـ اعذريني يا ساندرا.

ضغطت ساندرا على شفتيها ونظرت ببرود نحو صوفي.

ـ ألست محظوظة أنك ابنة اخيه المحبب؟

سألتها بسخرية مكشوفة تقريباً وتابعت:

ـ انه ثور مع النساء، ألست كذلك يا عزيزي؟

تجاهلها آدم ونظر متفرساً في صوفي:

ـ هل أنت جاهزة؟

أومأت صوفي.

ـ نعم. حقيبتي في الردهة مع أحد الخدم.

تحركت بسرعة وأرادت أن تبتعد، فقد شعرت بأن المرأة الأخرى كادت أن تنقض عليها.

ـ حسناً. اسبقيني وسأكون معك بعد لحظة.

سمعت صوفي وهي تسير نحو الباب، توسلات ساندرا التي قاربت البكاء ورفض آدم القاسي، وأنا به قريباً، يمشي بلا اكتراث نحو الردهة وعندما نظرت اليه بدا غير متأثر بما حدث وارتعدت. لو خاطبها أي رجل مثلما خاطب آدم ساندرا ماركس لتمنت أن تختفي وتموت. ولكن ساندرا متزوجة. ألم يحبها زوجها في شيء؟

حمل الخادم حقائب صوفي الى حيث توقفت سيارة آدم، ورآه يناوله خمسة دولارات. وتساءلت اذا كان هذا واجبها لكنّ انشغالها بأمور أخرى انساها الامر.

كانت الشمس قد غابت وبرودة المساء بدأت تحمل دفئاً لطيفاً. حتى ازدحام السيارات في الطريق خفّ بعض الشيء، مع أن تجمع الناس في متاجر الجواهر الصينية والمراكز الفندية ومتاجر التحفيات والمحفورات الخشبية استرعى انتباهها.

كانت سيارة آدم مرسيدس ضخمة بدت فارهة رغم الغبار الذي كساها. فتح باب السيارة ورمى حقيبتها على المقعد الخلفي ثم اشار اليها لتدخل.

أغلق آدم الباب ثم سار حول السيارة ليجلس الى جانبها. وضع يده على سقف السيارة وجلس بحركة فيها لين وخفة. وضع المفتاح في مكانه.

ثم قال لها قبل أن يدير المحرك.

ـ لست مضطرة الى أن تتصرفي وكأني وحش. فأنا لم أكذب ثقتك بأن ساندرا قادرة تماماً على الاعتناء بنفسها.

تخضّبت وجنتا صوفي وقالت:

ـ لا أدري عمّا تتكلم!

ـ أه أجل، تعلمين.

وأصلح من وضع ثيابه وتابع:

ـ لدي بعض المعرفة عن بنات جنسك وأنا مدرك تماماً أنك تشعرين ببعض العطف تجاهها.

ـ لا شأن لي بالأمر.

ـ أنا أوافق. ولكن وفري عطفك لشخص يستحقه.

ثم أدار المحرك وقاد السيارة بمهارة الى الشارع العام.

أصغت صوفي تسمع صوت موسيقى متناغمة من مكان قريب، وجعلها الصوت النابض تشعر بضرورة ترقب منطلقة غير ارادية تشدّ عبر جسمها. كان صوت قرع الطبول بدائياً واخترق وعيها برعشة، محدثاً رغبة في التمايل مع الموسيقى. كانت معتادة على الموسيقى الحديثة في الوطن، لكن هذا كان مختلفاً. نظرت الى آدم [illegible] ولكنه بدا غير متأثر بالاصوات التي سمعها بوضوح ولا تقل حدةً بالنسبة اليه. ولكنها كانت جديدة ومثيرة بالنسبة الى صوفي ونسيت لفترة أنها متعبة وتنهدت باستمتاع. تنبه آدم الى صوتها، وسألها:

ـ هل أنت متعبة؟

هزّت صوفي رأسها وقالت:

ـ كلا، أليست الموسيقى رائعة؟

زمّ آدم شفتيه قليلاً.

ـ اتساءل اذا كنت ستقولين الشيء نفسه بعد بضعة أسابيع.

ـ لماذا؟

ـ ثلاثة أسابيع وحال عيد الكرنفال ستسمعين هذه الموسيقى الى درجة تضيقين منها لو أنهم لم يعزفوها.

حلّق آدم ثم أردف:
- أفهم أنك تحبّين هذا النوع من الموسيقى.
- أحب الموسيقى على أنواعها.
أجابت صوفي وسألته ثانية:
- وأنت؟
هزّ آدم كتفيه وأجاب:
- لا أشك في أنك ستتفقين مع ابني أكثر في هذا المجال.
قال لها بشيء من التهكم. وجمدت صوفي. ابنه! لم تفكر أبداً ابن آدم! ثم تذكرت، عرضياً، شيئاً قالته سالدرا مارش ولم يترك أثراً عليها حينها. كانت قد سألت اذا كان بيرز يعلم أنّ ليف ابنة عمه! طبعاً. كان عليها أن تفهم. اذا كان ابن خال ليف فهو حتماً ابن آدم
بلعت ريقها بصعوبة وقالت:
- بيرز؟
نظر آدم ناحيتها برهة وقال:
- نعم. كم عمرك؟
- انا... انا في الخامسة والعشرين.
شعرت بالعرق يتصبّب على جبينها. كادت تقول اثنين وعشرين.
وردّد آدم وهو يهز رأسه:
- في الخامسة والعشرين! تبدين أصغر سناً من ذلك.
- شكراً على الاطراء.
حاولت أن تبدو خفيفة لكنّها فشلت.
- كم... كم عمر بيرز؟
- لم يخبرك والدي؟
- ربما... ربما فعل ولكن... لكني نسيت.
- انه في السابعة عشرة.
أحنت صوفي رأسها. أصغر منها بخمس سنوات فقط. اذن ما هو سن خال ليف هذا؟ ولماذا هي تهتم لهذا في أي حال؟
انحرف آدم بالسيارة وابتعد عن أضواء الشوارع الرئيسية متجهاً نحو

ضاحية معتمة، وبدت أشجار النخيل عملاقة وضوء السيارة ينعكس عليها. كانا يتسلّقان تلاًّ خارج البلدة والتفتت صوفي فرأت دنيا خلاّبة الأضواء ممتدة تحتها. وشعرت بوخزة خوف مزعجة. ففي المدينة كانت تشعر أنها لا تزال تتحكّم بمصيرها بطريقة ما، اذ كانت قادرة على الهرب الى انكلترا والتخلّي عن مهمتها اذا اتضح لها أنها مستحيلة. لكنها الآن أصبحت هنا مرتبطة بالدور الذي وافقت على القيام به، وعلمت غريزياً بأنّ آدم سانت فينسنتي لن يخفي أي شكوك تراوده في ما يختصّ بها. لم يكن من نوع الرجال الذين يمكن أن تلهو معهم، واذا ما اكتشف أنها كانت تخدعهم...

كان النسيم البارد الذي اندفع عبر نافذة السيارة المفتوحة مفعماً برائحة البحر. واستنتجت صوفي أنها قريبان من البحر ولكنها لم تستطع أن تميّز شيئاً عدا لمعان ضوء القمر الباهت. ورغم صعوبات وضعها، شعرت برغبة في رؤية الساحل في النهار. كان كل ما رأته في الجزيرة تقريباً مفعماً بالحياة واللون والحيوية، واقتنعت بأنّ الشواطىء الرملية والموج الأخضر لن تكون أقل اثارة. فقط لو أمكنها التفكير في تلك الأشياء وعدم القلق...

طال الصمت بينهما وشعرت صوفي بوجوب القيام بجهد لتكسره، محاولة أن تظهر عادية. فقالت له:
- أخبرني عن بوانتي سانت فينسنتي. هل... هل هو اسم منزل والدك؟
وانتبهت متأخرة الى أنه كان عليها أن تقول منزل جدي، لكنّها لم تستطع تغيير ما قالته. لكن بدا أن آدم لم يلاحظ هفوتها وأجابها:
- كلا، بوانتي سانت فينسنتي هو اسم المنطقة حيث يوجد المنزل. أما المنزل فلا اسم له، عدا أنه معروف محلياً كمنزل عائلة فينسنتي.
- يبدو ذلك رائعاً!
- هكذا؟
وزمّ آدم شفتيه:
- ظننت أنه لن يروق لك.



- لماذا؟
- هذا السبب واضح. علمت بوجودنا منذ عشرين عاماً لكنك لم تقومي بأي جهد للاتصال بنا.
تورّدت وجنتا صوفي وأجابت بتلعثم:
- أنا... أنا فهمت أن... لأن جدّي رفض التعامل مع والدي.
- هكذا! لكنه كان سيرحب بكلمة منك. أنت حفيدته في أي حال. الوجه البريء في القضية.
فتمتمت صوفي بارتباك.
- أنا... نحن لم نتحدث في الأمر مطلقاً.
- ألم تفعلا؟
أحكم آدم يديه على مقود السيارة عند منعطف حاد.
- أرى الأمر صعب التصديق.
- أنت لا تفهم ما حدث.
تحشرجت صوفي وهي تتكلم. فهي سمعت رواية أمها للقصة وكان في إمكانها أن تتفهم معضلتها.
- والدي لم يتقبل موت والدتي أبداً. فقد أحبها كثيراً جداً. ولم يستطع أن ينسى أنني كنت السبب المباشر في وفاتها. أنا... أنا لا أقول أنه لامني، لكنني كنت أذكّره بها دائماً، حسناً، ألا تستطيع أن تفهم؟ لم يكن في استطاعتي الاتصال بجدّي في تلك الظروف. فالأمر كان سيبدو نوعاً من التدخل.
فكر آدم في الأمر وقال:
- أستطيع أن أفهم ما تحاولين قوله، لكنني لا أقول أنني أوافق عليه.
- في الواقع أنا... أنا جدّي لم يكن متحرراً بريئاً في هذه القضية، أم هو كذلك؟ أعني، إنه كان مسؤولاً عن هذا الانفصال في البداية.
- ربما كذلك. أتذكر أنه كان غريق الفكر حين كانت والدتك تريد عنه، وكانت صدمة عظيمة له عندما اختارت أن تتجاهل كل شيء فعله لأجلها أو ما قد يفعله... من أجل مهندس مفلس!
- هو... أبي والدي لم يكن مفلساً!



- بالنسبة إلى ثرائه والدتي كان كذلك.
- أعتقد أنه أراد لها أن تتزوج لمصلحة؟
- إذا قصدت بكلمة مصلحة، شخصاً مناسباً أكثر، أجل. كلمة مصلحة لها معان أخرى.
فقاطعته صوفي من دون أن تقدر على التحكم بنفسها:
- وهي أيضاً تعني زواجاً يعتمد الواقع أكثر من اعتماده الحب؟
- كان في إمكان هوارد فليمنغ أن يسعدها.
- كيف يمكنك أن تقول ذلك؟
انزعجت صوفي من برودة نبرته.
- الواضح أنها لم تحب هوارد فليمنغ هذا، وإلا لما هربت مع جيمس هوليستر؟
ضاقت عينا آدم فتأملت صوفي رموشه السوداء الطويلة وهو ينظر إليها.
- جيمس هوليستر؟
ردّد بعدها وأضاف:
- هذه طريقة غريبة للتحدث عن والدك.
علمت صوفي أن عليها توضيح الأمر فقالت متحدية:
- لماذا؟ اسم والدي كان جيمس هوليستر. أليس كذلك!
حوّل آدم انتباهه إلى المنعطفات الخطرة في الطريق.
- إذا أصررت على ذلك.
علّق بهدوء، وتساءلت صوفي بعض الشيء هل تخيل إليها أنها تسمع نبرة عدم التصديق في صوته. بالتأكيد كان يصدّق أنها من ادعت شخصها، وإلا لما أتى بها إلى هذا المكان؟
ثم سألت لتغيّر الموضوع فجأة:
- كم تبعد بوانتي سانت فنسنت بعد؟
نظر آدم إلى ساعته الذهبية وأجاب:
- ربع ساعة أخرى.
وارتاحت صوفي أكثر في مقعدها. قريباً سيصلان وكان عليها تحضير نفسها للأمر الواقع الذي ستعيشه مضطرة.

عند وصولهما الى الطريق المؤدية الى المنزل كان القمر قد أطل، واستطاعت صوفي أن ترى في نوره الخافت المنحدرات الشجرية التي تؤدي الى مرفأ طبيعي تحت المنزل حيث تلعب ظلال البيوت العائمة على صفحة الماء. لكنّ المنزل ذاته هو الذي عقد لسانها فقد أضفت الحدائق المحيطة لوناً غريباً على واجهته البيضاء. كان منزلاً من طابقين وبدا منفسحاً مع الثلة تحتها وأحاطت زهور مختلفة الألوان بالدرج المؤدي الى موقف السيارات وامتدت أقسام البيت المختلفة بارتياح في الاتجاهات دونما أي اعتبار للتصميم او التوازن. لكنه مع ذلك بدا أحد اجمل المنازل التي رأتها.

أوقف آدم الرسيدس في الفناء المنبسط بجانب البيت، وسمعت صوفي وهي تفتح بابها وتخرج من السيارة صوت أمواج المحيط تتلاطم على الصخور تحتها. وظنت أنه من السهل جداً على المرء أن يزهو بنفسه في مثل هذا المحيط لكن آدم سانت فينسنتي بدا غير آبه للأمر.

خرج من السيارة، وفيما كان يجلب حقيبتها من المقعد الخلفي هرع شخص ما نحوهما. وعندما اقترب الوافد الجديد، رأت صوفي أنه غلام أسود البشرة يرتدي سروالاً أسود وسترة بيضاء أنيقة، وابتسم لآدم ابتسامة سهلة مألوفة.

- والدتك قلقة عليك يا سيد آدم.

قال له وهو يأخذ الحقيبة من يد سيده بخفة. ثم نظر ناحية صوفي.

- هل هذه ابنة الآنسة جينيفر؟

زمّت شفتا آدم:

- هذا صحيح يا جوزيف. هذه هي الآنسة إيف هولينستر.

اومأ جوزيف بحرارة ناحية إيف:

- ان السيد براندت سيكون سعيداً جداً برؤيتك يا آنسة إيف. لم تأتِ أية صبية الى منزل سانت فينسنتي منذ فترة طويلة!

نظرت صوفي الى آدم الذي وقف الى جانبها بعدم اكتراث وعلّق أصابعه الى حزام سرواله وهو ينظر الى جوزيف باستكانة كسولة. وتذكرت أن رشاقته ظاهرة في كل ما فعله. فهو يتحرك بسهولة، او بكسل. لكنها تستطيع أن تشعر بالقوة الخفية التي تكمن فيه، القوة الخشنة. كانت هذه

هي الصفة التي أزعجتها فيه، كانت تشعر بوجوده وأزعجها ذلك الى درجة ما.

اتبعه جوزيف الى انه كان يؤخرهما ويتراجع كي يسمح لآدم بأن يأخذ صوفي عبر الدرجات الى المنزل. استطاعت أن تسمع صرير الصرصار المستمر فوق سطح البحر، وكان عليها كبت شعور الاثارة الشديدة الذي كان يعتمل في داخلها ويضغط على صدرها.

وقفت على مدخل المنزل عندما وصلا نهاية الدرج، اصطدم آدم بها وللحظة أمسكت ذراعه واعتذر منها.

- كانت غلطتي أنا.

قالت صوفي بعصبية غير مبررة لأنها شعرت بقربه منها

قادها آدم عبر باب مشبّك الى قاعة باردة. وبدت القاعة كأنها تمتد من أول المنزل الى آخره وتتفرع منها ممرات عدة، وسلم لولبي يؤدي الى الطابق العلوي. ورأت اناء مليئاً بالأزهار الرائعة على قاعدة خشبية برزت الأزهار منها على نحو غريب. وأنار القاعة مصباح ذو قاعدة نحاسية له اطار مزدان برسوم صينية.

نظرت صوفي حولها ببعض الاندهاش. كان هناك الكثير من اللون والجمال لتنظر اليه، ولكن آدم حثّها على السير وأخذها عبر القاعة وصعد بها بضع درجات ووقف أمام باب أزرق اللون.

- هذه مكتبة والدي.

قال لها مفسراً ثم فتح الباب.

دخلت صوفي الى غرفة مؤثثة بطريقة توحي بالراحة، أرضها مفروشة بسجاد من جلود الحيوانات وغطيت طاولة في المنطقة الرئيسية منها، وجدرانها مليئة بكتب جلدية مرصوفة ورفوف فيها ملفات وأريكة، وطاولة صغيرة عليها آلة طابعة وسلّتان للأوراق. كان واضحاً أن براندت سانت فينسنتي يدير شؤون المزرعة من هنا. ثم نهض رجل من خلف الطاولة عابساً. وانكمشت الغرفة عندما ركزت انتباهها على الرجل.

لم يكن براندت سانت فينسنتي يشبه ما تصورته أبداً. فبعدما توسلت ايف ذهابها الى ترينيداد من أجل التخفيف عن رجل محتضر كانت صوفي

تتوقع أن تجد رجلاً في السبعين من عمره، ضعيفاً ومعتلاً، يعيش كل يوم من دون أن يعرف حقيقة، ما اذا كان سيعيش اليوم التالي.

كان الرجل الماثل امامها مختلفاً تماماً. ومثل ابنه، بدا أصغر من عمره سنوات، وقدرت أنه في أوائل الستينات. اضافة الى ذلك كان رجلاً في أوج نشاطه، طويلاً ومليئاً بالحيوية وأضخم من ابنه لكنه يشبهه جداً. شعر كثيف بدأ يغزوه الشيب وملامح قوية مليحة.

نهض يرحب بها وتقدم منها فاتحاً ذراعيه. ووضعت يديها في يديه بعفوية فيما هي غير قادرة على نكران الترحيب الذي أبداه نحوها وهتف وهو يهز رأسه.

ـ اذن أنت ابنة جينيفر. أكاد لا أصدق!

ـ ماذا؟

سألته عابسة لكنها لم تستطع التفكير بأي شيء آخر تقوله.

ضغط براندت على يديها وقال بانفعال:

ـ لقد انقضى زمن طويل. ثم استعاد اتزانه وتابع:

ـ افترض أنك لا تعرفين الكثير عني وعن والدتك.

ـ لا أعرف الكثير عنها

اعترفت صوفي بعصبية

ـ انها... نادراً ما تحدث والدي عنها. كان... كان الأمر يؤلمه.

تبدلت ملامح براندت عند ذكر جيمس هولستر. ضغط على شفتيه واختفى الدفء من عينيه البنيتين، وقال:

ـ اعتقد أنه من الأفضل أن ننسى الماضي وننظر الى الحاضر. ألا توافقين؟ أعني من الواضح أن التحدث في بعض الاشياء سوف يكون مؤلماً لكلينا. ولا فائدة من استذكار الاحزان القديمة. وصدقيني كلانا تألم بما فيه الكفاية. لذا اقترح أن نبدأ من جديد. أن نتعرف الى بعضنا من دون الذكريات المتوترة التي خلفها أناس نعرفهم منذ مدة بعيدة.

أومأت صوفي موافقة بصمت وهمست:

ـ أنا... أنا مستعدة.

ثم نظرت الى يديها في يديه.

ـ حسناً، حسناً.

ورفّ تعبير براندت ثانية.

ـ لا يمكنك أن تتخيلي كم أسعدتني. لقد انتظرت مجيئك الى هنا ومقابلتك بفارغ الصبر. نحن نملك الآن وعداً منك لي. أنا أعلم أن لديك عملك، لكن وبالتأكيد يجب أن تأتي العائلة في المقام الأول قبل أي شيء آخر!

حدقت فيه صوفي. لا تعلم تماماً كيف تجيب. وهتف قائلاً:

ـ استريحي! لا تضطربي. سيكون وجود امرأة شابة في البيت مرة أخرى رائعاً.

نظرت صوفي وراءها. كان آدم يقف مستنداً قرب الباب يراقبها وابتسامة كسولة على شفتيه بينما كانا يتحدثان. ثم اقترب منهما وقال:

ـ جوزيف قال الشيء نفسه. لو علمت أنكم متشوقون لوجود امرأة...

اختفى صوته عرضياً ونظر براندت بنفاد صبر الى ابنه وقال:

ـ لا تكن متهكماً يا آدم. اذا كنت استقبلت ابنة اختك على هذا النحو فلا استغرب أن تكون مضطربة!

نظر آدم الى صوفي وقال:

ـ حسناً، ربما لسنا ما توقعت هي أيضاً

صاح براندت:

ـ ماذا تقصد؟

هز آدم كتفيه:

ـ لا شيء.

ثم حوّل نظره بعيداً عن صوفي وأخرج علبة سيكار من جيبه.

ـ أظن أني سأذهب وأبدل ثيابي للعشاء. أشعر ببعض التعب

وبرقت عيناه ناحية صوفي ثانية، ثم تابع:

ـ ربما ترغب ابنة اختي في أخذ حمام وتبديل ملابسها أيضاً.

التفت براندت نحو صوفي معتذراً وأخذ يحرر الدفء وهتف:

ـ طبعاً، طبعاً. فكرة ممتازة. اسمحي لي أن أدلك الى غرفة الضيافة. طبعاً لا بد أنك متعبة. سوف ترينا غرفتك ثم تعالي بعدها. ونظر الى

ساعات، بعد نصف ساعة؟ أتستطيعين ذلك وقتاً كافياً لتكوني جاهزة؟
ـ طبعاً.
وشبكت صوفي يديها وأردفت:
ـ أنا... أنا أريد أن أقول بأني سعيدة جداً لكوني هنا.
سار أدم والسيكار في فمه ناحية الباب.
ـ لم أحببت القول.
فأن يفكر وشدّت صوفي قبضتها:
ـ أفاهل عائك.
نصحها برانتدت ونظر إلى ابنه موبخاً.
ـ إن سلوك أدم متهكم.
فتح أدم الباب وأسند نفسه إليه لبرهة ثم علق بكسل:
ـ أنت والداً تقول بأننا متشابهان في كثير من الأمور يا برانتدت.
ثم أغلق الباب خلفه.
بدت الغرفة خاوية بعد ذهابه ونظرت صوفي بارتباك إلى جد إيف، وهمست:
ـ الطريق طويل جميل. أنا مشوقة إلى رؤيته في النهار.
ـ أو فعلاً.
بدا برانتدت مسترخياً ثانية واقترب منها وهو يبتسم:
ـ أنا متأكد بأنك ستكونين سعيدة هنا يا إيف. فأنا أدري أن أجعل إقامتك ممتعة إلى درجة لن ترغبي معها في مغادرتنا ثانية. لدينا الكثير هنا ليستأثر باهتمامك. السباحة والأبحار والغطس. إذا كنت مغامرة كما فيه الكفاية فأدم وبيرز يعلمانك. إنهما يقضيان ساعات طويلة على متن المركب. طبعاً، الجزيرة نفسها جنة حقيقية لمحبي الطبيعة. لدينا فصائل متنوعة كثيرة من الطيور يجب أن نأخذك إلى غابة العصافير في كاروني، وتهيد مضيفاً، أترين يا عزيزتي، منذ الآن أنظر إلى الأسابيع المقبلة بانتظار عظيم.
لقد فرج الباب صوفي من الاجابة على هذه الخطبة الصغيرة. وسأل برانتدت من الطارق فدخلت خادمة سوداء وابتسم لها.

ـ أه فيوليت.
خاطبها ووضع ذراعه حول صوفي.
ـ يا عزيزتي إيف، اسمحي لي أن أقدم إليك كنزنا فيوليت.
فضحكت المرأة السوداء وتابع قائلاً:
ـ إنها تدخل الراحة إلى كل حياتنا من دون أن نقدرها ذلك حقاً. أليس كذلك يا فيوليت؟
ـ إذا قلت ذلك يا سيد برانتدت.
وتحولت عينا فيوليت الداكنتان صوب الفتاة.
ـ كيف حالك يا آنسة إيف؟ إنني مسرورة للقائك.
ـ مرحباً فيوليت.
قالت صوفي مبتسمة.
ـ هل لك أن تأخذي إيف إلى غرفتها؟
قال برانتدت ودفع صوفي برفق إلى الأمام وأضاف:
ـ ثم نتناول عشاءنا بعد نصف ساعة.
ـ [illegible]
[illegible]
ـ [illegible]
بعد أن ابتسم جد إيف مرة أخرى مشجعاً، ذهبت صوفي مع فيوليت عبر الممر إلى القاعة.
سارتا باتجاه الدرج وبدأتا تصعدانه عندما دخل شاب عبر الباب المشبك وراءهما. كان طويل القامة نحيلاً، وأبرز سرواله الضيق وقميصه القطني جسمه النحيل. ونظر مندهشاً عندما رآهما وانتقل نظره إلى صوفي كما فعل أدم. واستنتجت صوفي أن هذا هو بيرز لكنه لم يكن أسمر كوالده فشعره مسترسل وملامحه الكسولة جذابة وأقل عدوانية من ملامح والده.
ـ أهلاً، أهلاً.
قال وهو يقترب من أسفل الدرج.
ـ لا بد أنك إيف. هل أنا مصيب؟
لاحظت صوفي أن فيوليت وقفت تنتظر منها أن تجيب بيرز، فابتسمت

قائلة:

- نعم. انا ايف. وانت بيرز بالطبع.
- أحظى بهذا الامتياز المشكوك فيه.

أجابها بيرز ضاحكاً وأكمل:

- الن يبقى لتسلّمي على ابن خالك المفقود؟

انحنت فيوليت على السور وقالت:

- السيد راندت قال إنّ العشاء سيكون بعد نصف ساعة يا سيد بيرز والآنسة ايف تحتاج الى ذلك الوقت لتغتسل وتحضر نفسها.

كشّر بيرز وقال باستهزاء:

- عشاء عائلي، هل قابلت عائلتنا يا ايف؟

ترددت صوفي قبل أن تجيب:

- الجميع باستثناء عمة ابي روزالند على ما أعتقد.
- روزا!

قال بيرز وزمّ شفتيه، ثم تابع:

- آه حسناً، انها الوجبة الأخيرة لك.
- سيد بيرز.

قالت فيوليت موبخة:

- اعذريه، أعلم انه يجب الاّ اتكلم مع كبار السن بقلة احترام، لكن لا تلومي كثيراً عما أقوله يا ايف.

ووفرت نظرة فيوليت المعبّرة الاجابة على صوفي، عندما تابعت الخادمة صعودها السلم، تبعتها صوفي من دون أن تنظر الى الوراء.

لكنها ابتسمت. لقد أحبّت بيرز. كان لطيفاً وغير معقد. وظنّت أنّ في امكانها أن تفهمه. لكنها لن تفهم والده ابداً، حتى بعد مليون سنة...

٣ - حفيدة... لكنها غريبة

كانت غرفة صوفي تقع على الجهة المستديرة من المنزل، وعندما خرجت الى الشرفة في الصباح التالي كاد نفسها ان ينقطع بسبب جمال المنظر الذي واجهها.

تحت الدرجات المنحدرة المؤدية الى الفناء العشب والتي تسلقتها مع أدع الليلة السابقة، انحدرت الحديقة الكثيفة الاخضرار لتلتقي عند حافة صخرية منحدرة الى البحر. ومع انها علمت بوجود بيوت عائلية في الاسفل استنتجت انه يوجد ممر للنزول الى الصخور في الاسفل. والبحر نفسه كان عملاقاً ازرق ساحراً يتلألأ صفحة مياهه ويلمع في أشعة الشمس الساطعة. صار الطقس دافئاً جداً وتمنت صوفي التي لم تنم جيداً ان تخلع ثيابها وتغطس في تلك الاعماق التي دفّأتها الشمس.

لكنها لم تكن تعرف عادات المنزل بعد. ومع انها لمست الاكتشاف ما حولها لكن يجب ان تنتظر من يدعوها الى ذلك. وهكذا اكتفت بالاستحمام في الحمام الرائع الملاصق لغرفتها وفكرت حتماً بالوضع الصعب الذي زجتها فيه ليف.

اصبح واضحاً اكثر فأكثر ان اسباب اخفاء ليف اخبار الثريا الحقيقية عنها كان خطة متعمدة، فهي لا بد علمت ان صوفي لم تكن لتوافق على المشروع لو لم تستطع ان تستثير الجانب العاطفي من طبيعة صوفي. واوشكت هذه ان تغضب جداً لكنها لم تستطع انكار موجة الاثارة الصاعقة التي غمرتها عندما فكرت في الاسابيع المقبلة.

في اي حال، فكرت وهي تعود الى واقعها ان وضعها لن يكون سهلاً ابداً ولم تفهم لماذا اختارت ليف ان تتظاهر بأن جدها لم يكن يعلم مهنتها بينما الحقيقة هي عكس ذلك. الا اذا كانت تخبئ لسبب وجيه ان صوفي سترى في الامر سبباً اخر لعدم المخاطرة في المجيء. في اي حال، فمنذ معرفتها لهذا الجانب من شخصية ليف كان مشكلاً جداً.

لكنها رفضت ان تقلق الآن. كان هذا يومها الاول في ترينيداد وقررت ان تستمتع به ما استطاعت.

لفت منشفة كبيرة حول جسمها الرشيق وعادت الى غرفة نومها. بينما كانت تتناول طعام العشاء في الليلة السابقة كانت ثيابها قد علقت في الخزائن الطويلة. وفتحت باب احدى الخزائن ونظرت في داخلها بامعان.

كانت قد جلبت معها الكثير من الملابس الصيفية وبعض السراويل والقمصان ورداء خاصاً بالسهرات واختارت ان ترتدي تنورة قصيرة بيضاء ذات ثنايا مطرزة بحاشية زرقاء وبلوزة قطنية زرقاء جعلت بشرتها تبدو شاحبة قليلاً. وفكرت بانها ستبدل كثيراً من الثياب اذا ما قدر لها البقاء لفترة كافية في هذا المكان.

وفيما هي تفكر في البقاء في المكان تذكرت عشاء الامس. كانت امسية غير حقيقية اذ جلس آدم المتهكم الى رأس المائدة الطويلة وابوه في الطرف المقابل. كانت المائدة مغطاة بلمع من الزجاج والشمعدانات وسلة الاثارة الوحيدة. فكرت صوفي ان الضوء الخافت وظلاله جعلتها تشعر بأن نظرة

آدم كانت شيطانية كلما نظر نحوها.

كان برانديت لطيفاً وقدمها الى شقيقته روزاليند بفخر ظاهر. لكن صوفي لم تشعر بالاطمئنان معه هو الآخر. فهي كانت تخدعه. كانت دخيلة. ولا شيء يغير ذلك.

لكنها فهمت ما قاله بيرز عن عمته. لا بد انها كانت جميلة يوماً ما، الا انها الآن اصبحت هزيلاً مما كانته في الامس. فبدت كانها لا تزال تعيش الماضي، عصبية وشاردة الذهن وبدت اكبر سناً من اخيها القوي وفكرت صوفي انه ربما كانت والدة ليف محقة عندما هربت وهي قادرة، لكنها انبت نفسها للتفكير بمثل تلك الطريقة. ومن يدري ربما اثر رجال هذه العائلة على نسائهم، وعرفت جيداً مثل ذلك مثل اي شخص آخر.

وبدا لصوفي انها لا تستطيع ان تكون طبيعية الا مع بيرز فهو يتحدث معها بشكل طبيعي، سائلاً اسئلة عن لندن استطاعت الاجابة عنها بصدق ومن دون ارتباك. غير انها كانت تشعر دائماً بأبيه وهو يراقبها وسرت عندما انصرف آدم بعد العشاء. لم يسأله احد عن وجهته وهو لم يقل شيئاً. لكن الجو اختلف بشكل واضح بعد انصرافه. كانت تصفف شعرها عندما سمعت اصواتاً وشخصاً ما يصفر في الساحة. فوضعت فرشاتها جانباً وعبرت الغرفة بسرعة ونظرت خلسة من الشرفة. لم يكن هناك داع الى القلق. كان هناك آدم وبيرز والخادم منهمكين الى درجة لم يلتفتوا معها صوب الشرفة في الطابق الاول. كانوا يعبرون الساحة معاً ويحملون الاقنعة واسطوانات الاوكسيجين. لم تستطع صوفي الا ان تبتسم. فهذا ما ارادت ان تفعله تماماً. كانت متأكدة من ان المياه حول جزر السانت مليئة بالاسماك والحياة البحرية. اختفى الرجال عبر ممر لم تلاحظه صوفي سابقاً لكنها انتبهت الآن الى انه يؤدي الى حافة الصخور. والاغلب الظن انه يؤدي الى الدرجات المفضية الى الخليج. وتساءلت وهي تدخل غرفتها عن سبب شعورها بالكآبة فجأة. كان يفترض بها ان تشعر بالراحة بسبب غياب آدم وبيرز لكن الواقع كان مختلفاً. ربما سبب ذلك انها تطلعت الى رؤية بيرز ثانية وبدا لها ان املها سيخيب.

كانت الساعة جاوزت الثامنة عندما غادرت غرفتها ونزلت الى القاعة

وهناك التفتت احدى الخادمات وسألتها اين يفترض بها تناول طعام الافطار.

كانت الفتاة تنظر اليها باستغراب وايقنت صوفي ان موقفها لم يكن اجتماعياً لكنها لم تكن معتادة على اصدار الأوامر.

ولحسن حظها ظهرت فيوليت في تلك اللحظة وبدا الاهتمام عليها حين رأت وقوف الخادمة الاخرى وسألت بحدة:

- ما الخطب يا آنسة ايف؟ هل تحدثت عليك هذه الفتاة؟ ليزا اذهبي الى المطبخ، سأراك في ما بعد.

- لم يحدث سوء يا فيوليت. ببساطة انا لا افهم اين اتناول الفطور.

- آه . . .

ومأت فيوليت، لكن اشارة من اصبعها جعلت الفتاة ليزا تهرع نحو المطبخ. ومرت برأسها وهي تخاطب صوفي:

- انت جائعة، اليس كذلك؟

- أجل.

- حسناً، حسناً. تعالي من هنا.

ارشدتها فيوليت الى غرفة منسقة على يمين القاعة تطل على باحة مع منظر الحديقة الغنية امام المنزل وكانت هذه الغرفة صغيرة بالنسبة الى مكتب براندت والقاعة التي جلسوا فيها بعد العشاء ليلة امس. فيها طاولة مستديرة مغطاة بالزجاج قرب الابواب الفرنسية الطويلة وخزائن طويلة مليئة بالصحون والاكواب.

- اذهبي واجلسي على الشرفة وسأجلب لك ترويقتك خلال ٥ دقائق. هذه الشرفة الصباحية يتناول السيد براندت طعام الغداء هنا عادة، كما ستكتشفين بنفسك من دون شك.

- شكراً يا فيوليت. آمل الا اكون مصدر ازعاج.

بان الدفء في عيني فيوليت.

- بحق السماء لا يا آنسة ايف، ان وجودك هنا متعة. لقد احببت والدتك منذ ولادتها وكنت دائماً انتظر اليوم الذي سألتقي فيه بطفلتها هي ايضاً.

وتابعت بشيء من الحزن:

- وكأنما سأجد الاعتناء بابنتها ممتعاً، يا آنسة!

شعرت صوفي بالتكدر. لماذا قالت فيوليت كل هذا؟ كانت تشعر بالارتياح حتى اللحظة لكنها الآن اصبحت تشعر بخداعها مرة اخرى.

وسارت بسرعة نحو النافذة وغيرت الحديث فجأة:

- اليس المنظر جميلاً؟ لا اظن اني رأيت اجمل منه ابداً.

حدقت فيوليت وقالت بثبات:

- على الاهتمام بفطورك يا آنسة.

ثم غادرت الغرفة.

استدارت صوفي وشعرت بكآبة شديدة تغمرها. كانت تتمنى اكثر واكثر لو انها لم تسمح لايف بالالحاح عليها في المجيء الى هذا المكان. واختفت حماستها في معظم احداث النهار. لكن عليها ان تستمر الآن، وكلما اسرعت في التوقف عن توبيخ نفسها كان افضل لها. كان عليها ان تتصور انها تلعب دور ايف هولينستر، ويجب الا تسمح لمشاعرها الشخصية بان تتدخل ابداً.

استمتعت صوفي بالفطور الانكليزي الذي احضرته فيوليت. كانت تحتسي ثالث فنجان قهوة عندما فتح الباب وظهر جد ايف.

- صباح الخير يا ايف.

قال لها بحرارة ظاهرة وسار نحوها وشد على يدها بمودة.

- جميل ان اراك هنا الى طاولتي. هذا مكانك. والآن اخبريني، كيف كان يومك؟

- جيداً جداً . . . شكراً لك يا . . . جدي؟

- تجدين صعوبة في قول تلك الكلمة، اليس كذلك؟

وعندما لم يصدر منها اي رد فعل، تابع حديثه:

- جدي! تجدين صعوبة في التفكير بأني جدك؟

لم تعلم صوفي ماذا تجيب.

- آه . . . ليس بالفعل.

لكنه لم يقتنع.

- أعتقد ذلك. ولكن يمكنك مناداتي براندت كما يفعل بيرز. هل يناسبك ذلك؟
حدقت فيه صوفي.
- أنا... إذا لم يكن لديك مانع.
همست بارتباك وتساءلت عما كانت ستقول إيف لو هي في وضع مشابه.
- حسناً، حسناً.
بدا براندت مكتفياً وأردف:
- ربما سنجد طريقة لمخاطبة الرب مع الوقت ولكن هذا يكفي الآن.
ابتسمت صوفي. وتابع حديثه:
- هل أنهيت فطورك؟
أومأت برأسها.
- أجل كان شهياً. أستطيع من الآن أن أتخيل كيف سأستمتع بتمضية خلال إقامتي هنا.
- إذن ما رأيك في القيام بجولة في أملاكي، هذا إذا كنت مهتمة.
- الأملاك.
رددت صوفي بنعومة ونهضت.
- آه نعم، أود ذلك. لكن، ألا تريد تناول طعام الفطور؟
- أتناول فطوري في السابعة والنصف صباحاً في غرفتي.
أخبرها براندت وهو يضع يديه في جيبي سترته. وفكرت صوفي كم تطابقت كلماته وصورتها عنه. كان رجلاً قوياً مهيمناً، منضبطاً مع نفسه ومع الآخرين، متخلياً عن العيش السهل، مفضلاً الانضباط الذي مارسه دوماً.
ثم اعتدل في وقفته وسألها إذا كانت مستعدة للذهاب فوراً.
- نعم، أعتقد أنني مستعدة.
ونظرت صوفي ناحية الأطباق الفارغة وقالت:
- ألا تعتقد... أعني أليس الأفضل أن أحمل هذه الأشياء إلى المطبخ؟
قطب براندت وأجاب:
- طبعاً لا. ستعتني إحدى الخادمات بالأمر. هذا عملهن.

ولانت ملامحه وهو يقول:
- عليك أن تعتادي على السماح للآخرين بخدمتك. لا أظن أنك معتادة على ذلك في الماضي.
- كلا.
هزت صوفي رأسها.
- هل سأحتاج إلى معطف؟
- لا أعتقد. بالمناسبة سنذهب في سيارتي. هل تركبين الخيل؟
- كلا...
أجابت صوفي فوراً ثم شعرت باشتداد أعصابها. كيف تستطيع ركوب الخيل. كانت تعلمت في مدرسة الفتيات التي أرسلها والدها إليها. تذكرت أنها أخبرته ذلك في الماضي. ثم هدأ روعها إذ أن براندت لا يعلم بالأمر وإلا لما سألها.
- إذن هذا أمر علينا تعليمك إياه.
قطعت كلماته حبل أفكارها وهدأتها. ثم وضع ذراعه حول كتفيها.
- تعالي. دعينا نذهب. إني أتطلع إلى أن أريك المزيد من المنطقة.
كانت ممتلكات عائلة سانت فينسنتي شاسعة كما توقعت صوفي. نمت فيها أشجار الموز. وقال براندت أن الموسم كان جيداً وأن معيشة الكثيرين غير أن مصدر دخله الرئيسي يأتي من الجهة الأخرى من الجزيرة، من مصافي النفط التي جنى منها ثروة لا تعد والتي أصبحت عماد الاقتصاد في الجزيرة.
إلا أن أشجار الموز بأغصانها المائلة مثلت بالنسبة إلى صوفي شيئاً حقيقياً وأساسياً، وكانت سعيدة أنها لم تضطر إلى رؤية آبار النفط وما جاورها من آليات.
وأدهشها رؤية أشجار الموز في حالتها الطبيعية والثمر يتدلى منها موفراً الظلال. كانت الحرارة مرتفعة جداً حتى داخل السيارة وتطلعت إلى عودتها وإلى المنزل البارد.
في أي حال، استمتعت برفقة براندت. ومثل جميع الرجال العصاميين كان يعرف كل التفاصيل عن عمله، وشرح لها عن حياة حبة الموز من بدء

تكريمها في البرعم الى تحويلها الى نوع شوكولاته. فكرت صوفي بالمصاعب الجمة التي واجهت مزارع القهوة. وإثر عودتها الى المنزل شعرت انها تألم بالموضوع الى درجة كبيرة. ولم تستطع الا ان تتساءل عن رد فعل أدج اذا ما بدأت تبحث معه العلاجات المحتملة لمرض جرثومي يصيب النباتات. ولم تشعر بالانزعاج الا عندما زارا احدى القرى كي تتفرج على اكوام حبوب البن المجففة. فقد راعها رؤية مستوى معيشة الناس، بعكس برانت الذي لم يتأثر عندما ذكرت الأمر. وكان واضحاً انه لم يرَ ما يزعج في نقصان النعم. ولم ينظر الى موضعه على انه غير.

- انك مرهفة جداً يا إيف.

قال لها في طريق عودتهما.

- فالمنازل كافية، والمدارس مجانية. وإذا عانوا من تكاثر نسلهم فاللوم يقع عليهم.

قالت صوفي:

- لكن يجب ان يكون هناك بعض القيود.

رد عليها برانت بأن هز رأسه.

- عندما تبدأين بوضع قيود على حياة الناس، يشعرون بالدكتاتورية.

احتجت صوفي:

- تحديد النسل ليس كذلك.

- هنا يقبل الناس ما يعطيه الله شاكرين. انهم سعداء يا إيف! ألم تلاحظي ذلك؟ أتظنين ان المنازل والممتلكات المطيفة هي التي تجعل الناس سعداء؟

تحفظت صوفي وقالت:

- لم اقل ذلك.

- كلا. انما هذا ما تعنيه. أليس كذلك؟

وابتسم برانت.

- استطيع ان ارى ان علينا تثقيفك بطرق عدة يا إيف.

كان الوقت بعد الظهر عندما عادا الى المنزل. واعتذرت صوفي وصعدت الى غرفتها. واستحمت، ثم تمددت على سريرها واسترخت.

كانت متعبة من الحرارة والتوتر فلم تفلح في محاولتها النوم. سمعت طرقاً على بابها. ورأت خادمة تدخل وهي تحمل صينية عليها ابريق صغير من مشروب الشوكولاته المثلجة وبعض قطع البسكويت.

اعتدلت صوفي في فراشها قليلاً وغطت نفسها بالشرشف. وقالت وهي تبتسم:

- أه شكراً لك. ضعيها على الطاولة هناك.

فعلت الخادمة ما طلبت منها، وعندما جلست صوفي لاحظت انها الخادمة نفسها التي تحدثت معها في الصباح.

- قال السيد برانت ان اخبرك ان الغداء في الثانية يا آنسة إيف. وقد اعتقد انك سترغبين في تناول هذا حتى ذلك الحين.

- شكراً لك.

وحاولت إيف ان تجعل الفتاة ترد الابتسامة، لكنها رمت برأسها فقط وتركتها.

وبعد ان غادرت الخادمة، سكبت صوفي كوباً من السائل ذي الرائحة الذكية واحبت مذاقه. أكلت قطعة من البسكويت ثم استرخت ثانية. كانت حالتها النفسية آخذة في التحسن، ووجدت نفسها تبتسم. فقد كان الصباح سهلاً جداً. وعندما تصبح مقبولة هنا ستسير الأمور من حسن الى احسن. ربما لم تكن إيف مصدر عداوة كما فكرت في السابق...

تناولت طعام الغداء مع برانت وروزا على الشرفة. ولما لم تر أدج أو بوزي جهرت الأمر فأوضح لها برانت:

- تملك شركة تأجير صغيرة خارج بورت أوف سباين. يخوت، ومراكب شراعية ومراكب بمحركات وما شابه. يوم امس اراد زوجان اميركيان استئجار يخت ولسوء الحظ كان القبطان مريضاً، فحل مكانه بحار غير خبير. وارتطم اليخت بالصخور على مسافة من هنا قرب فم التنين دراغونز ماوث.

- فم التنين؟

لم تفهم صوفي فأوضح لها:

- انه جزء من قناة المياه الضيقة التي تفصل ترينيداد عن الشاطئ،

الترويض.
- هل تأذى احد؟
- لا توجد اصابات خطيرة. بعض الخدوش والجروح. هذا كل ما في الأمر. انهم محظوظون لكن اليخت تلف ويجب سحبه الى بورت اوف سباين للاصلاح. وهذا ما يفعله آدم ديور.
- اوه.
علقت صوفي وانهمكت بتناول الطعام وعادت تسأل:
- هل . . . هل هذا جزء من عمل خالي؟
- آدم؟
هز براندت كتفيه ومد يده الى جيبه وتناول سيكاراً.
- اعتقد انه يمكنك قول ذلك، مع ان الزراعة عمله الاساسي. في الحقيقة يمكنك تسميته مدير اعمال كل شركات سانت فينسنتي. اعتقد انه لا يقوم بأي عمل مباشر الآن، بل ربما يدقق في اعمال الآخرين لكن لا احد يستطيع اخفاء شيء عندما يكون موجوداً.
- استطيع ان اصدق ذلك.
ابتسم براندت وقال بنعومة
- ها، هل اسمع نبرة خاصة في صوتك يا ابنة؟ يجب الا تسمحي له بازعاجك كما تعلمين.
مسحت روزا سانت فينستي فمها بنعومة.
- لا اتوقع ان تجلب ابنة جينيفر الى هنا من دون ان يظهر آدم رد فعل ما.
قالت بصوتها العالي النبرة.
- لا استطيع؟ ولم لا؟ انت بالتأكيد لا تعنين بقولك هذا ان آدم غيور.
هزت روزا رأسها نفياً:
- لا ... ان طبيعة آدم الكريمة لا تسمح له ان يكون غيوراً.
- اذن ماذا تقصدين؟
شعرت صوفي بنفاذ صبر براندت يتزايد خلف قشرته المهذبة.
- اعني هوارد بالطبع.

- ابداً.
مضغ براندت سيكاره الذي لم يكن اشعله واطرق ثم قال:
- ولماذا يؤثر بي، كيف اثر هذا على هوارد؟ هذا تاريخ مضى يا روزا.
- انه لم يتزوج!
- هذا لا يعني شيئاً بالمرة.
زم براندت شفتيه وقال بانفعال:
- انت تعيشين في الماضي يا روزا.
- هل تظن ذلك حقاً؟ ربما . . .
وهزت كتفيها النحيلتين ثم تابعت:
- لكن الجميع يعلم ان قلب هوارد انفطر عندما هربت جينيفر مع . . .
- هذا يكفي يا روزا!
اصبح براندت حاد النبرة الآن.
عندما انتهى الغداء استأذنت روزا في الذهاب. ومع ان براندت لم ينهض فوراً عن كرسيه فقد كان في استطاعة صوفي ان ترى انه مشغول بأمور اخرى غير ضيفته الحديثة.
- هل تمانع اذا ذهبت الى غرفتي؟
سألته بتردد وارجعت كرسيها الى الوراء ورأت وجهه يتضرج.
- لا. طبعاً لا يا عزيزتي. لدي بعض الاعمال انا ايضاً وحرارة الطقس شديدة لا تسمح في البقاء خارجاً. اقترح ان نلتقي على الشرفة لـ الشاي بعد الظهر نحو الساعة الخامسة.
- حسناً.
ابتسمت صوفي وتركته وسارت نحو غرفتها وهناك شعرت بالقلق ومع انها كانت متعبة لم تستطع النوم. اثرت كلمات روزا عليها بقوة ورأت نفسها تفكر بهوارد المجهول. وايقنت انه لا بد ان يكون هوارد الشخص الذي تحدث آدم عنه وهما عائدان في السيارة من بورت اوف سباين وتساءلت ما اذا اثر عليه هروب جينيفر بالشكل الذي ظنته روزا. لا بد ان يكون اكبر من آدم ببضع سنوات بالطبع. وهذا يعني انه في اوائل الاربعينات. في اوج شبابه كما يقول البعض. لماذا لم يتزوج؟

بعد الظهر سمعت أصواتاً مرة أخرى تحت نافذتها وعلمت أن آدم وبيرز لا بد عادا. وجعلها الأمر تتحمس أكثر من اللزوم وشعرت بنفاد صبر من رد فعلها هذا. الساعة الخامسة ارتدت فستاناً برتقالياً ونزلت إلى الشرفة لتناول الشاي. كانت الغرفة الصباحية خالية إلا أنها رأت بيرز جالساً هناك.

- مرحباً!

هتف ونهض بارتباك.

- تبدين جميلة ومتألقة. ماذا فعلت بنفسك طوال النهار؟

جلست صوفي على كرسي من الخيزران وهزت كتفيها.

- لا شيء غير عادي. خرجت مع جدي هذا الصباح ثم ارتحت بعد الظهر.

- ارتحت؟

قال بيرز باندهاش:

- في مثل سنك؟ ألم تذهبي إلى البحر؟

- كلا. ربما سأذهب غداً.

- غداً لا شيء!

قاطعها بيرز.

- اذهبي ارتدي ملابس السباحة وسنذهب الآن.

- نذهب؟

رددت صوفي بصوت خافت.

- طبعاً لم لا؟ ألا تحبين السباحة كذلك؟ والوقت عظيم الآن فالمياه دافئة حقاً.

لم تعرف صوفي ماذا تجيب.

- لكن من المفروض أن أتناول الشاي مع براندت.

- أوه. لن يتأخر. في كل حال ستعودين قبل أن يعرف أين أنت.

وطقطق أصابعه في وجهها وابتسم قائلاً:

- حسناً، هيا، حضري نفسك للذهاب.

- لا أدري إذا كان يجدر بي...

بدأت صوفي تقول بعدم ارتياح لكنه قاطعها:

- هراء! أنت تعلمين أنك مشتاقة إلى السباحة. لا يمكنك قضاء ليلة أخرى في ترينيداد من دون اختبار معنى السباحة هنا. صدقاً سوف تحبين الأمر.

- أنا متأكدة من ذلك، ولكن...

رفع بيرز حاجبيه بنفاد صبر وقاطعها مرة أخرى:

- يبدو أنك تحتاجين إلى الكثير من الإلحاح.

أخيراً اتخذت صوفي قراراً. وقفت واثقة بعصبية:

- حسناً، إذا كنت متأكداً.

- طبعاً أنا متأكد وإلا لما سألتك!

- حسناً، أعطني خمس دقائق.

ذهبت إلى غرفتها وسحبت ملابس السباحة ونظرت إليها بتردد. ثم هزت كتفيها وبدأت تخلع ملابسها.

بدا اللباس صغير الحجم جداً، واعترفت بأنها ابتاعته صغيراً إلى هذا الحد. شعرت بالعري حيث إنه لم يسبق أن ارتدت مايوه بيكيني وعرضت وسطها لأشعة الشمس.

إلا أن وقت الندم مضى وشعرت بالرضى لأنها أحضرت سترة خضراء وزرقاء لترتديها فوقه.

عادت أدراجها إلى أسفل وهي تشعر ببعض القلق. كانت في منتصف طريقها على الدرج عندما دخل آدم ورآها.

فوراً، شعرت أكثر بصراحة ملابسها وتمنت لو أنها تستطيع الدوران والهرب إلى غرفتها. لكن بالطبع لم يكن في استطاعتها أن تفعل ذلك. فهذا الرجل يفترض به أن يكون خالها وأي احتشام قد تبديه لا يتجاوز احتشام الخال بابنة أخته.

وهكذا تابعت سيرها ووصلت إلى القاعة ورآه يتقدم بكسل وقد بان جلده الأسمر الملون من خلال فتحة قميصه. ثم حرك ذراعيه إلى جانبيه ونظر إليها بتمعن. وعندما لم يقل شيئاً، اضطرت صوفي إلى المبادرة وقالت له:

- انا . . . سيأخذني بيرز الى السباحة.
اومأ آدم برأسه دليل الموافقة.
- انا لم اسبح بعد.
- لم تفعل.
لم يكن مباشراً في حديثه. ووجوده حيث هو، سد طريقها وكان عليها الالتفاف حوله اذا ارادت ان تتابع سيرها.
- هل كان ضرر قاربك طفيفاً؟ هل استطعت استرداد قاربك؟
سألته وهي تأمل ان تبعد نظراته عنها.
هز آدم كتفيه وقال:
- لقد استرجعنا اليخت. نعم. لكن بالكاد ادعو الضرر طفيفاً. لن تكون شركة التأمين سعيدة بدفع نفقات اصلاحه في هذا . . .
ابتسمت صوفي نصف ابتسامة لكنها عندما لم تلق تشجيعاً قالت:
- اعتقد انك متعب.
- ليس بشكل خاص. لنا عمل المركب بعد الظهر.
واخيراً ابتعد عن طريقها.
- علمت ان والدي طاف بك في مزارعه هذا الصباح.
- نعم. هذا صحيح. كان الأمر ممتعاً.
وبلهجة متهكمة بعض الشيء، قال:
- تمتعت اذن!
- بالطبع تمتعت.
- اعتقد انه اخبرك انه عمل مربح.
كانت صوفي قد ابتعدت لكن كلماته اوقفتها. ونظرت اليه بعبوس قائلة:
- لست متأكدة. لكن اظن ان كلماتك وقحة نوعاً ما.
قالتها وهي ترتجف.
- هل هي كذلك؟ ربما كان علي ان اتكلم بصورة اكثر وضوحاً.
حدقت فيه صوفي مستفسرة لكنها لم تستطع الاستمرار في التحديق فهمست:
- لا بد ان بيرز ينتظرني.

واومأ لها علامة موافقة على انصرافها. لكن ما ان خطت اول خطوة حتى اطل بيرز من الغرفة، وكانت منشفة حمراء وبيضاء تتدلى على كتفيه. انفرجت اساريره عندما رأى صوفي وابتسم:
- لقد عدت! بدأت افكر انك غيرت رأيك.
- اخشى ان اكون سبب تأخرها يا بيرز.
قال آدم ذلك وعاد الى الاسترخاء.
- لكن لا تدعني اؤخركما اكثر يا اولاد.
رفضت صوفي النظر اليه. بل استدارت ناحية بيرز وقالت:
- نعم، دعنا نذهب.
كانت حرارة الشمس قد خفت الى درجة كبيرة وشعرا بنسمات هواء منعشة على وجهيهما وهما يهبطان الدرج وفكرت صوفي وهي تحاول طرد آدم من تفكيرها. اتت المنحدرات الى رصيف رسي عنده قارب شراعي وقارب بمحركات. لا شك انه اليخت نفسه الذي استعملاه قبلاً. صرصرت الحبال قليلاً عندما تحركت القوارب مع الماء وملأت الجو رائحة مالحة نفاذة. لم يتغير لون البحر. من هنا اصبح في الامكان رؤية عمقه والأسماك الصغيرة تسبح فيه وتتهادى النباتات برقة في قاعه. خلع بيرز سرواله وسترته وظهر تحتهما مايوه ازرق ثم قفز بخفة فوق الصخور ونظر وراءه ليرى صوفي لا تزال في مكانها مترددة.
- تعالي ان المكان آمن. تستطيعين ان تسبحي اليس كذلك؟
- نعم.
قالت صوفي والشك يخالجها وهي ترخي رباط سترتها:
- هل المياه عميقة؟
- هنا؟ ليست عميقة جداً. عشرة اقدام كحد اقصى.
اتسعت حدقتا صوفي استغراباً:
- عشرة اقدام!
وضع بيرز يديه على خصره.
- هل ستأتين ام لا؟ بحق السماء اخلعي سترتك وتعالي.
تنهدت صوفي وتركت السترة تهوي وهز بيرز رأسه راضياً.

- جميل جداً.

قال لها وهي تسير على الصخور بارتباك نحوه:

- ولكن لونك شاحب. لا بأس. فسرعان ما ستصبحين سمراء مثلي.

شكت صوفي في الأمر، فبيرز كان أسمر اللون مثل والده. ومثل هذا اللون الداكن يحتاج الى سنوات عدة لاكتسابه.

سار بيرز نحو حافة الصخور ونظر الى أسفل بانتباه. ثم نادى صوفي:

- هل تغطسين؟

- أستطيع. ولكن أفضل ألا أفعل.

واعترفت صوفي بعصبية:

- لا أستطيع أن أنزل في المرة الأولى؟

أشار بيرز الى الخليج حيث برز رأس صخري من الماء.

- هذه تلك الصخرة التي تغطي براندت سانت فيلستي اسمها ليس هناك ما يخيف ... فلا مد قوي أو تيارات مائية. سأغطس أنا أولاً ثم تتبعيني.

غطس ثم عام. وأزاح شعره عن عينيه ثم سبح عائداً الى حيث كانت صوفي ما زالت تقف.

- هيا! انه أمر سهل. اقفزي!

ترددت صوفي لحظة أخرى ثم ضغطت على طرف أنفها لتسده وقفزت من الصخور الى الماء. ضاق تنفسها عندما شعرت بالبرودة في البدء لكن ما ان طفت على صفحة المياه حتى شعرت بأن المياه كانت دافئة بالفعل. ونظرت حولها لتجد بيرز على مسافة منها وسبحت في اتجاهه بسهولة وهي مسرورة بإحساس الماء على جلدها الدافئ. قال بيرز:

- حسناً ليس الأمر سيئاً، أليس كذلك؟

- لا انه رائع!

دفعت صوفي الماء براحة كفها ونظرت حولها بتشوق.

- لم أسبح كثيراً في البحر سابقاً. ان الطقس بارد جداً دائماً في بلادي.

- هذا لا يفاجئني.

أومأ بيرز:

- كان الطقس بارداً جداً عندما كنت في انكلترا. عليك تعويض ذلك وأنت هنا.

سبحا ولعبا لبرهة ثم قال بيرز، ان عليهما العودة فقد جاوزت الساعة السادسة وقد يكون براندت قلقاً.

- الساعة تجاوزت السادسة! يا لله ظننت انها الخامسة والنصف تقريباً.

ضحك بيرز وقال:

- انها صحبتي المسلية يا صوفي. سآخذ كلامك كمديح.

ضحكت صوفي أيضاً ثم سبحا وخرجا من الماء. شعرت صوفي بضعف غريب في قدميها وادركت ان التمرين غير الاعتيادي قد اتعبها. وقال بيرز الذي لاحظ تعبها:

- سنرتاح هنا قليلاً قبل ان نصعد الى المنزل. أتوافقين؟

- آه، ولكن ماذا بخصوص جلدك؟

قالت صوفي قبل ان تفكر بكلامها.

- جلدي! انه جلدك أيضاً.

تنهدت صوفي:

- نعم. ادرك ذلك. لكن اعتقد ان المرء في حاجة الى بعض الوقت كي يعتاد الأمر.

قبل بيرز تفسيرها وبعد ان جفف جسمه لبس ثيابه وجلس قربها على الرصيف الدافئ، وسألها بلطف:

- أتظنين انك ستستمتعين بإقامتك هنا؟

هزت صوفي كتفيها:

- انا متأكدة.

- أنت سوف تبقين؟

- أبقى؟

- طبعاً. والدي قال انك لا تودين ذلك لكن براندت يأمل العكس.

فكرت صوفي بغضب. اذن هذا ما في الأمر! كان عليها ان تعلم بأن براندت سانت فيلستي ليس من النوع الذي يدع فرصة مثل هذه تضيع من يديه. استطاعت جينيفر ان تتحرر من قبضته، لكن ابنتها قد لا تستطيع

ذلك...

فجأة نودي عليها من فوق واستدارت لتجد براندت على رأس الدرج يطلب منها المجيء.

- تعالي، أرى أن علينا الذهاب.

كان على صوفي أن تبتسم وهي تنهض وصعدت الدرجات [illegible] بجة وخلفها بيرز. بقي حديثها عالقاً في ذهنها. وصلا رأس الدرج وسارا عبر الحديقة إلى حيث ينتظرهما براندت وحفلة، ربما أنه لم يكن وحده. كان في رفقته رجل آخر معتدل القامة ذو شعر بني داكن يخطه بعض الشيب وملامحه جذابة. كان يراقب صوفي وهي تسير نحوهما وتساءلت من عساه يكون. ماذا لو كان شخصاً يعرف إيف، وأدرك للحال أنها ليست حفيدة براندت سانت فيشني؟

لكن لم يكن هناك ثمة ما يبرر مخاوفها. وسرعان ما انكشفت هوية الغريب. أخذ براندت ذراعها بصورة تملكية عندما اقتربت وقال:

- كنا في انتظارك يا عزيزتي إيف. دعيني أعرفك [illegible] يعرف إليك ولكن [illegible]. أنت هنا الآن [illegible] هوارد فليمنج [illegible] حسناً يا هوارد، ما رأيك بالحفيدة؟

٤ - لماذا لا تبقى هنا؟

ارتدت صوفي ثياب العشاء في الليلة التالية بانزعاج. فقد كان مقرراً أن يتناولوا العشاء خارج المنزل هي وبراندت وروز [illegible] وشعرت أنها عصبية المزاج. سيذهبون إلى كوماني إلى منزل عائلة فليمنج، وشعرت بثقل الزيارة، بالقدر نفسه الذي شعرت به عندما أتت إلى بيت سانت فيشني.

كان هوارد فليمنج لبقاً جداً بعد ظهر اليوم السابق. معترفاً من [illegible] بالزيارة التي أحسها ولا تملك لها [illegible]. تعرف بوجود ذلك، متحاشياً الوقوع في أي ضيق معها. وهو على عكس [illegible]، ذهب إلى حد نسي فيه اسمه لوهلة والقدها وهو شيء لم يفعله حتى براندت.

في أي حال، كانت صوفي مدركة وضعها أكثر من أي أمر آخر. وبينما [illegible] هوارد رجلاً ودوداً وجذاباً، إلا أنه يبقى الرجل الذي أقلقت منه

جينيفر مفضلة جيمس هوليستر. عبرت الغرفة نحو السرير حيث كان فستانها الذي سترتديه في تلك الأمسية القياس للساري الرسمي الوحيد الذي احضرته معها وتأملت ان يكون مناسباً. كان الفستان طويلاً ابيض بدا قماشه كأنه مضيء. وكانت ايف قد اعدتها اياه قبل مجيئها الى ترينيداد بعد ان ابتاعته لمناسبة خاصة لكنها لم ترغب في ارتدائه مرة اخرى، لذا اصرت على صوفي ان تأخذه، واحست صوفي بالغبطة لانها قبلته. غطت الاكمام الطويلة المزمومة ذراعيها للمتوهين قليلاً، بينما اضفى العقد مظهراً هادئاً مصقولاً عليها.

لم يكن مقرراً ان يرافقهم بيرز. لكنه امضى معظم النهار مع صوفي التي ألحت لو يكون في الأمسية معهم بعض جوانب الساحة. غير انه لم يكن يحب مناسبات العشاء الرسمية فقرر الذهاب الى ناد ليلي في بورت اوف سباين مع بعض الاصدقاء.

نزلت صوفي الى القاعة حيث تجتمع العائلة عادة قبل العشاء الساعة السابعة. لكن الغرفة كانت خالية وسارت نحو النافذة وهي تفكر وتنظر الى الظلال في الحديقة. ثم اتجهت الى المكتبة وبدأت تطالع عناوين الكتب، وكشفة القرن كانت هذه الغرفة جميلة جداً فما ان تناولت كتاباً عن الرف حتى سمعت خطوات خلفها، واستدارت لتجد آدم يدخل الغرفة. وبدا رائعاً في سترة مسائية بيضاء فشعرت صوفي برعشة لا ارادية تسري في جسمها. اعادت الكتاب الى مكانه واستدارت نحوه بتردد. اطال النظر فيها وارتفعت وعاطفته بعضية:

- هل... هل منزل عائلة فليمنج بعيد من هنا؟

اجتاز آدم الغرفة ونظر نحوه وقال:

- ليس بعيداً جداً.

ثم سألها:

- هل تريدين شراباً؟

- لا مانع.

واعطاها الكأس وفيما هما يتحدثان سمعا اصواتاً في القاعة وبعد لحظة دخل براندت وروزا الربعة. كانت المرأة ترتدي معطفاً اسود طويلاً ناسبها

جداً وسرت صوفي لانها احتفظت بمظهرها الى هذا الحد. وبدا واضحاً لها ان المناسبة ستكون رسمية الى حد بعيد.

- آه، انت مستعدة.

خاطبها براندت وهو ينظر اليها باعجاب.

- تبدين رائعة يا عزيزتي. ستكونين موضع حسد الجميع هناك.

تقبلت صوفي المديح بخجل ونظرت بارتباك الى الكأس التي في يدها وتابع براندت نظراتها.

لم تستطع صوفي قول شيء. فقد شعرت بنظرات آدم تتبعهم فيها لكنها رفضت ان تنبه لمشاهدة ارتباكها، وهكذا احتست قليلاً من شرابها وحاولت ان تبدو عادية في ذلك. وعندما شعرت ببعض الارتياح تصورت انها مستعدة اكثر لمواجهة الامسية المقبلة.

ذهبوا الى كرمالي في سيارة فخمة رمادية احضرها السائق الزنجي جوزيف وقرر آدم ان يقود السيارة، فجلس براندت الى جانبه، بينما جلست صوفي وروزا في المقعد الخلفي. سمعت صوفي عبر نوافذ السيارة المفتوحة اصوات مخلوقات الليل غير المألوفة، وكانت رائحة الازهار التي تنمو بكثرة في الجزيرة تعبق فضلاً الأمسية عبر المقمرة بالشذى. وشعرت صوفي بالراحة.

استغرقت الرحلة عشرين دقيقة الى منزل عائلة فليمنج واستطاعوا ان يروا اضواء المنزل عامرة وهم يقتربون ويسمعون اصوات الموسيقى الخافتة.

كانت سيارة اخرى تقف عند منعطف في الممر، فأوقف آدم السيارة وراءها. ثم خرج ليساعد عمته في النزول بينما ساعد براندت صوفي وسارا معاً الى المدخل الخشبي.

صعدوا بضع درجات ووصلوا ساحة البيت الخارجية حيث رأوا الأبواب مفتوحة وآل فليمنج يرحبون بضيوفهم. وما ان رآهم هوارد فليمنج حتى اتجه نحوهم مرحباً بحرارة، وعندئذ تظاهرت صوفي بالاعجاب.

- تعالي لأقدمك الى والدي يا ايف.

قال له وأشار الى الآخرين ان يرافقوها.

- انا والدتي مشوقة للتعرف اليك.

كانت ماريون فليمنغ فارعة القامة مثل ابنها كما شابهته في الشعر. شعرها بني وقدرت صوفي انها تجاوزت الستين عاماً لكنها بدت اصغر من ذلك بعشر سنين. ما هو السر في الخلود الذي جدد شباب العالم وحيويته هنا؟

وهتفت والدته:

- اذن انت ابنة جينفر.

وتفحصت صوفي بعينين لم تعكسا حرارة كلماتها.

- لم اكن لأعرفك تلقائياً فانت لا تشبهينها ابداً.

- حقاً!

أجاب براندت وارتاحت صوفي من ضرورة الاجابة عن ذلك الكلام المربك، ثم تابع:

- طبعاً انها تشبه جينفر. ربما نسيت كم كانت جينفر جذابة.

- لم انس جينفر يا براندت.

اجابت ماريون ببعض الحدة، وساد صمت مربك لوهلة. وفي تلك اللحظة اقترب ادريان فليمنغ والد هوارد وقد بدت سمة الحديث الذي سبق اقترابه. ووجدت صوفي نفسها تقف وهوارد الى جانبها. فهمس باعتذار:

- يجب ان تسامحي والدتي يا ايف.

- لم تسامح جينفر بسبب هروبها.

ونظرت صوفي اليه:

- وهل سامحتها انت يا سيد فليمنغ؟

- هوارد ارجوك! سيد فليمنغ كلمة فيها تكلف ولا حاجة بنا الى الرسميات بحق السماء. ربما كنت . . .

ثم قطع كلامه فجأة وسألها:

- اخبريني. ماذا تفعلين في انكلترا؟

تنهدت صوفي بعمق، وبدأت تخبره قليلاً عما عرفته عن عمل ايف ولكن لحسن الحظ لم يلح عليها، وسرعان ما انتقل بها الحديث الى مواضيع اقل حساسية. قدمها هوارد الى الضيوف الآخرين، زوجان في منتصف العمر

لورنس وجين كينيدي وولي العهد، جاون التي كانت تتحدث مع آدم.

كان شعر جاون فليمنغ كشعر اخيها، كثيفاً واجعد، لكن التشابه بينهما انتهى عند هذا الحد. كانت اصغر قامة منه نحيلة وذات عينين لامعتين وفم صغير، وبدت في فستانها الأحمر اللامع كلسان لهب مع سترة آدم البيضاء، وهي تضع ذراعها على كتفه وكأنها تملكه. وعندما اقترب هوارد منها ليقدم صوفي، نظرت اليها بعدم اكتراث واضح وقالت كلمة ترحيب عابرة قبل ان تتابع حديثها مع رفيقها. كان آدم يميل برأسه نحوها وهو يستمع لما تقوله، وشعرت صوفي بلسعة قلق تنتابها عندما رأت مدى حميمية علاقتهما. ولم تتوقع رد فعلها هذا وتشددت على يدها بالكأس فاوشكت تشعر بموجة من الاستنكار تعتريها! لم تعرف السبب. لكن فكرة وجود علاقة ما بين هذين الشخصين لم ترق لها ابداً. ووجدت نفسها فجأة تتساءل عن شكل زوجة آدم ومنذ متى توفيت.

بدأت بالابتعاد ورأت عيني آدم تراقبانها. كان لا يزال يستمع الى ما تقوله جاون لكن صوفي لاحظت شروده للحظة. وتلاقت نظراتهما وتساءلت ان تنبه الى ما كان يقوله هوارد لها لكن الأمر لم يكن سهلاً. كانت يداها ترتجفان وراحتاها متعرقتين، وكرهت الاعتراف بأن آدم سانت جيمس كان سبب هذا الدفق القاسي من العاطفة. بحق السماء لماذا كانت تفكر؟ هل ارادت ان تعطيه الانطباع الخاطئ؟ ماذا يفكر لو بدأ يشك في ان الفتاة التي يفترض ان تكون ابنة اخته قد بدأت تشعر نحوه بطريقة لا تمت الى علاقة ابنة الأخت بالخال بشيء؟!

مسحت يديها وابتسمت لهوارد ابتسامة شكر متكلفة. ولكنها اعترفت انها لا بد ان تكون مجنونة لتدع مثل هذه الافكار تغمرها. وبالفعل لم تتذكر انها شعرت بشكل كهذا سابقاً. لم ترتبط بعلاقات عابرة في السابق وتجنبت نفسها، ربما عن سذاجة انها متحررة. لكن كان عليها الآن ان تعترف بنقطة ضعفها. حركت كتفيها بنفاد صبر. حسناً، ادركت هذا الضعف فيها وكان عليها ان تتغلب عليه. لكن هل ستتمكن؟ سمعت صوتاً في داخلها يهمس: لماذا لم تشعر بمثل هذا تجاه اي رجل قابلته في عملها، اولاً في استوديوهات التلفزيون، ثم في المسرح؟

كان منزل عائلة فليمنغ اقرب الى التقليدي من منزل بوالي سانت فينسنت. واخبرها هوارد انه من الممكن رؤية البحر من نوافذ الطبقة العلوية في النهار لكن موقع البيت كان بعيداً قليلاً عن البحر ولقد بنوا حوض سباحة في الحديقة. في هذه الامسية كان الحوض مضاء حيث تناولوا طعام العشاء خارجاً الى طاولة طويلة بدت جذابة بما عليها من اطباق هيبيسكوس صفر وقرمزية وبدا الحوض كأنه يدعو المرء الى السباحة.

واقترح هوارد على ايف ان تأتي لتقضي نهاراً معهم خلال اجازتها. علقت صوفي على ما قاله بتلطف لكنها لم تستبعد الفكرة كلياً. لم تكن تعرف تماماً ما قد تكون ردود فعل ماريون فليمنغ على مثل تلك الدعوة، ومع انها تصرفت بود مع جميع الضيوف، الا انها شعرت بانها لم تحبهم. كانت وجبة العشاء شهية ولم يسبق لصوفي ان تذوقت حساء سمك قبلاً، كما احبت اللحوم المشوية. انهوا العشاء بتناول بعض الفاكهة والقهوة التي اصبحت صوفي تحبها. كانت مسرورة لأن تجلس باسترخاء في مقعدها بين براندت وهوارد وتستمع الى حديثهما. بينما الرجال يدخنون السيكار الذي وزعه ادريان فليمنغ كان آدم يجلس قبالتها بين جين كينيدي وجانين فليمنغ. ومنعت صوفي عينيها من التجوال في ذلك الاتجاه واحست بان جانين يداً في ترتيب كيفية جلوس الضيوف الى الطاولة. عندما انتهى الجميع من تناول العشاء، ازال الخدم الطعام عن الطاولة. ثم سمع الجميع مزيداً من موسيقى الكاليبسو. سحبت جانين آدم ليراقصها وبعد ان رافق لورنس كينيدي ماريون فليمنغ الى حلقة الرقص، استدار هوارد نحو صوفي:

ـ لا اعرف كيف ارقص هذه الرقصات الحديثة لكنني سأفعل ما استطيع.

نظرت صوفي بشك ناحية براندت، منتظرة موافقته فأومأ برأسه مشجعاً:

ـ هيا، يا عزيزي شجعها وسأتمتع بمراقبتك.

مع كل ما قاله هوارد عن عدم خبرته في الرقص، فقد بدا راقصاً ممتازاً واستمتعت صوفي بمراقصته. كانت الموسيقى بطيئة ذات ايقاع ولم يضمها اليه كثيراً. ووجدت نفسها تفكر بغرابة الموقف وكأنها كانت فعلاً ابنة جينيفر

في اي حال، كان من الممكن ان يكون هذا الرجل اباها لو سارت الامور كما تتوقع وشعرت اكيدة انه كان يرجع على قول ذلك قبلاً عندما سكت عن الكلام فجأة. وعندما انتهت الاسطوانة شعرت بشيء من الحسرة. تحدثت معه بمرح وهما يسيران نحو الآخرين.

كان آدم يقف الى جانب كرسي والده ويتحدث معه ومع ادريان فليمنغ. ووقفت جانين الى جانبه، ولاحظت صوفي انها لم تكن متضايقة على الا تشترك في اي حديث. لكن الرجال كانوا يتحدثون عن الحادث الذي تلى البحث ولم تكن جانين مهتمة بالموضوع كثيراً. بدا هوارد كأنه ربط نفسه بها ذلك المساء وفي قربها منها ايناءهمت ومع انها استلطفته وجدت في رفقته متعة لكنها تمنت لو يهتم بضيوف والدته الآخرين اهتماماً اكثر. لاحظت ان آدم انتبه الى ملازمة هوارد لها ولم تكترث عندما رأت شفتيه ترمان كلما نظر تجاهها. وضعت اسطوانات اخرى على الفونوغراف ودعا لورنس كينيدي صوفي الى مراقصته. قبلت بعد تردد ورأت ان آدم كان يراقص مضيفته. بقيت جانين قرب اخيها وبراندت لكن صوفي استطاعت ان تدرك من تعابيرها انها لم تكن مرتاحة الى الوضع القائم.

تركا الحادية عشرة والنصف بعد ان رقصت صوفي مرات عدة اخرى احداها مع براندت واخرى مع ادريان فليمنغ سيد موريس، ونهاية الحفلة غادرت عائلة كينيدي واصرت على انها ستتصل بالآخرين لتنظيم حفلة ثانية في دارها. ثم رافق براندت وابنته عائلة فليمنغ الى المبنى الرئيسي كي تحضر روزا شالها. وتبعهم هوارد وصوفي وسارا امام آدم وجانين بخطوات واستطاعت صوفي ان تسمع همسات الفتاة، الا انها لسوء الحظ لم تستطع ان تفهم ما كانت تقوله واضطرت الى اجبار نفسها على عدم الانصات. بعد القاء تحية المساء، ذهبت صوفي وروزا وبراندت الى السيارة للعودة الى المنزل. وتأخر آدم قليلاً وبعد لحظة جاء، وجلس خلف المقود ولم تستطع صوفي الا ان تتساءل اذا كانت جانين هي السبب في التعبير المتجهم الذي ارتسم على عينيه!

لم تر صوفي آدم ثانية خلال يومين. علمت انه غادر في الصباح التالي للمحطة الى بيلركو وهو المطار الدولي في بورت اوف سباين ليراقب بالطائرة

إلى توباغو. واخبرها بيرز ان لديهم مصالح في سكاربورو، خاصة الجزيرة الصغيرة، وبما انه حر تقاعد تقريباً من العمل، فقد قام بتلك المهام بنفسه.

همست صوفي بدلال، وبالكاد مدركة انها تحدثت بصوت مسموع:

- يبدو انها رحلة ممتعة.

نظر اليها بيرز مندهشاً وسألها:

- هل كنت ترغبين القدوم انت ايضاً؟ كان في امكانك ذلك على ما اظن، لكنني افترض ان والدي لم يعتقد انك تولين الأمر همك.

وهزت صوفي رأسها بسرعة وهتفت:

- أوه... كنت فقط اتكلم الهمس، علماً انني سعيدة تماماً هنا. شكراً لك.

ابتسم بيرز وتنهد قائلاً:

- اجل، ان الحرية هنا مفيدة، أليس كذلك؟ لا احب العمل داخلاً، وافضل الفضاء والعمل في القوارب. اخبريني، هل تودين الابحار على قارب شراعي؟

- لا اعلم... اعني لا اعرف ما هو حقاً.

- يمكنني ان اعلمك. ان الأمر سهل فعلاً ما دام في امكانك ان تسبحي...

- تقصد في حال انقلب القارب بنا!

ابتسم بيرز بحذق وقال:

- في الواقع على المرء ان يكون حاضراً لكل احتمال.

نظرت صوفي الى بشرتها ولاحظت كم تبدو جذابة بلونها الذي يتحول تدريجياً الى البني وهمست:

- أوه... لا أدري...

- لماذا؟ الا تثقين بي؟

رفع بيرز حاجبيه وبدا للحظة شديد الشبه بوالده.

نظرت صوفي بعيداً وقالت:

- طبعاً اثق بك. الأمر هو... حسناً، ما سيقول برانتدت؟

- اسأليه.

اجابت صوفي بتردد:

- هل افعل؟

- انا اسأله اذا كنت ترغبين.

- لا. لا. انا سأفعل.

ونهضت صوفي ونظرت نحوه من دون ان تعير صخب المياه الذي ازداد اي اهتمام.

- هل احتاج الى شيء؟

- حذاء من المطاط. اذا كان لديك. اسرعي. سوف يعجبك الأمر.

لم يبد برانتدت اي اعتراضات على مخططهما عدا تنبيه صوفي أن تكون حريصة.

- لا اريد ان يصيبك مكروه واذا بالكاد عثرت عليك.

قال لها بحرارة وشعرت صوفي بالذنب. كان عليها ان تقنع نفسها انه لولا محبتها لما وجد احداً يغدق عليه حنانه وانها بالتالي لا تراقب. لكنها كرهت ان تخدعه هكذا. ورأت الأمر يزداد سوءاً.

اخذها بيرز في القارب. ومع انه كان صغير الحجم نسبياً فقد كان يتحرك بسرعة كبيرة وهو يمخر الماء. تضايقت صوفي في البداية. لكن ما ان استقرت في المركب حتى بدأت تستمتع بالنزهة. فالقارب الشراعي كان مثيراً اكثر من القوارب ذوات المحرك، كما كان تفسير بيرز لما يفعله مثيراً ايضاً.

- اذا ابحرت المركب في وضع مستقيم يسير بالضبط سرعته والريح هي التي تقوم بالعمل طبعاً. هذا الحبل الرئيسي في يدي كي اغير من وضع الشراع في مواجهته للريح. فاذا ما واجهتنا ريح قوية مفاجئة وكان الشراع معرضاً لها الى درجة كبيرة يمكن عندها ان ننقلب. ولذا على البحار توجيه المركب وادارة الشراع.

- هذا رائع.

ونظرت صوفي الى الشراع العالي فوقها والى زرقة السماء الصافية.

- هل سأستطيع تسيير القارب لاحقاً؟

ابتسم بيرز بجود:

- ليس إذا استمررت في الانحناء نحو الحافة كما تفعلين الآن. عليك أن تنثني بعكس ضغط الريح، لا أن تضيفي وزنك في اتجاه ضغطها.

ضحكت صوفي وغيرت موضعها.

- إني مسرورة لأنك دعوتني إلى المجيء.

- وأنا أيضاً.

نظر بيرز إليها وبدا مسروراً.

- يبدو أننا نستمتع معاً أليس كذلك؟

أومأت صوفي برأسها موافقة. كان ذلك صحيحاً. فعندما تكون مع بيرز تنسى غرابة موقفها وتتصرف بصورة طبيعية. ربما كانت مبالغة لكنها شعرت بأنها كانت تستمتع مع بيرز في أي حال ومن دون صلة القرابة المفترضة بينهما.

في صباح اليوم التالي دخل براندت إلى غرفة الصباح بينما كانت صوفي تنتهي من تناول الافطار ليبلغها أن هوارد يريد التحدث إليها بالهاتف.

نظرت صوفي نحوه وقد بدا وهو متجهم الوجه.

- ماذا؟

سألته دونما تفكير فهي لم تجد سبباً يدعو هوارد فليتشر إلى التحدث إليها.

هز براندت كتفيه وأجاب بقلق.

- أعتقد أنه سيدعوك إلى قضاء نهار في كومالي.

قالت صوفي وصمتت فمها بالتدلل.

- أوه.

سألها براندت باشراق:

- ألا تريدين الذهاب؟

- ليس بشكل خاص... أنا بالتأكيد أفهمهم.

- إذن لا تذهبي.

ثم أضاف:

- أعلم أن هوارد يشعر بانجذاب نحوك، حسناً... لأنك ابنة جينيفر، لكن لا يعقل أن يتوقعك أن تتحرري مما تركته أمك!

ابتسمت عبثاً صوفي:

- أتعتقد أنه يشعر هكذا؟

- اللعنة، أنا أعلم أنه كذلك!

وتحرك براندت بنفاد صبر:

- بالتأكيد حتى أنت لاحظت كيف حام حولك طوال تلك الأمسية!

تنهدت صوفي:

- من الأفضل أن أقول له إنني لست ذاهبة اليوم.

- نعم، أعتقد من الأفضل أن تفعلي ذلك.

أومأت صوفي برأسها ونهضت واقفة. آخر ما أرادته الآن هو أن يخلق هوارد فليتشر تعقيدات عاطفية لها. خاب أمل هوارد عندما رفضت دعوته. فقال مقترحاً:

- إذا لم ترغبي قضاء نهار هنا فما رأيك بدعوة إلى العشاء هذه الليلة؟

ترددت صوفي وأخيراً قالت:

- أدع ليس هنا، كما تعلم واعتقد أن جدي يفضل لو بقيت هنا الليلة.

سمعت هوارد يتنهد بعمق ويقول بإصرار:

- غداً، إذن؟

صمتت لفترة فقال لها هوارد:

- يعود آدم غداً، أليس كذلك؟ وسوف يبحث مع براندت في شؤون العمل، في هذا الوقت تتناولين العشاء معي.

فكرت صوفي في الأمر. كان هناك بعض الحقيقة في قوله في أي حال، أبلغها بيرز أنها كانت رحلة عمل.

- حسناً غداً مساء. أي ساعة؟

- سآتي لأخذك قرابة الساعة السابعة. أيناسبك ذلك؟

- حسناً.

قالت صوفي وبدأت تندم على موافقتها للخروج معه.

- إلى اللقاء إذن.

- الى الغد يا ايف.

ما ان وضعت سماعة الهاتف مكانها حتى شعرت بانها لم تعد وحيدة في الغرفة. كان براندت قد خرج من غرفته ووقف يراقبها.

- اذن، سوف تخرجين معه غداً مساء.

علق بتجهم مبيناً لها انه سمع نهاية حديثها مع هوارد. وتابعت قائلة:

- لم يكن في وسعي ان افعل شيئاً سوى ان اطلب اليه ان يدعني وشأني؟

هز براندت رأسه.

- الى اين سيأخذك؟

- لست ادري. لم افكر بسؤاله. فقط الى العشاء على ما اعتقد.

ووضع براندت يديه في جيبي سرواله واقترب منها:

- حسناً، هل تعلمين يا ايف. لقد مضى على وجودك هنا قرابة اسبوع وحتى الآن لم نتحدث فعلاً.

- اوه، بل فعلنا! والواقع بانني احب اقامتي هنا، والجميع لطفاء معي.

- من السهل على المرء ان يكون لطيفاً مع شخص مثلك يا ايف. ويجب ان تعلمي... حسناً... قال براندت بصوت اجش واضاف:

- لا اريدك ان تفكري في العودة الى انكلترا.

نظرت صوفي اليه وأحست بعدم ارتياح:

- ولكن... ولكنك تعلم انه يجب علي ان اعود.

- لماذا؟ لماذا يجب عليك؟

- لانني... عملي...

- اعلم ذلك. انا مستعد لأن اقبل ما يعنيه عملك لك. لكن انا اردت منك ان اساعدك فليس كثيراً علي ان اتوقع منك البقاء بعض الوقت هنا.

حدقت صوفي فيه من دون ان تفهم قصده، وقالت بصوت شبه هامس:

- لا افهم.

وفكرت بشكل حدسي مفاجئ، اذا كان ثمة امر اخفته عنها ايف قصداً.

- طبعاً تفهمين.

بنفس الخط كان براندت مستمراً بشرح وجهة نظره الى درجة لم ينتبه معها لكآبة في صفحتها.

- لا انوي الخوض في حسنات الوضع ومضاره الآن. هناك متسع من الوقت لذلك. لكن... اتمنى ان تفكري جدياً في البقاء هنا. هل فترة سنة مدة طويلة؟

- سنة؟

كان ارتباك صوفي واضحاً هذه المرة. واحنى براندت كتفيه من خيبة امله. وقال بصوت مثقل:

- لا تريدين ذلك. ولا استطيع ان اجبرك. لكنني اتمنى ان تحاولي رؤية الامر من وجهة نظري.

- ولكنني افعل.

وضغطت كفها على كفه وتابعت:

- انا... انا افهم تماماً. لكن لدي ارتباطات. ولا استطيع ان اتخلى عن كل شيء لفترة سنة!

زفر براندت بصوت مسموع:

- لا. لا. كان علي الا اطلب ذلك.

راقبته صوفي بضعف. لكن ماذا تستطيع ان تفعل. كانت غير قادرة على تلبية رغبته حتى ولو ارادت. اقترحت ايف عليها البقاء اسبوعين او ثلاثة اسابيع. لكن ليس سنة! اضافة الى انه كان عليها التفكير في عملها. فالشركة لن تبقيها في عملها بعد غياب سنة.

في اي حال، لو انها كانت فعلاً ايف هولمستر، وبراندت كان حقاً جدها، لكانت على يقين ان لا شيء يمنعها من البقاء وتحقيق رغبته. فحياتها في انكلترا اصبحت الآن تافهة والحياة الحقيقية هي في ترينيداد وضاحيتها، في بوانت سانت بيتش...

- أوه... حسناً، أعتقد أنك متعب.
- لا. هل يجب أن أكون؟
تعمّد أن يكون محتداً. استدارت صوفي بعيداً. لم يكن في وسعها الدفاع عن نفسها عندما يهاجمها بهذا الشكل.
- فهمت أنك ستتناولين العشاء مع هوارد.
جعلها كلامه تستدير نحوه ثانية.
- نعم. لا بد أنه سيصل في أية لحظة.
- إذا أردت نصيحتي، لا تقتربي من هوارد.
حلّق آدم بوضوح، وشعرت صوفي بموجة من العصبية تذوب أمام موجة من الغضب التام:
- لا أذكر أنني طلبت نصيحتك.
- لا، ولكنني أقدمها في أي حال.
- ولماذا؟ لماذا لا أخرج معه؟
- أول شيء، عمره أكبر من أن يلائم عمرك. ثم إنه يعاني من وهم أنك جينيفر بعثت حية.
أطلقت صوفي نفساً مرتعشاً:
- نحن مجرد أصدقاء.
- حقاً!
تناول آدم سيكاراً من علبة على الطاولة ووضعه بين أسنانه.
- حسناً. لا تقولي إني لم أحذرك!
تنهدت صوفي وراقبته وهو يشعل السيكار ووجهه يحتقن ثم هتفت:
- تمنيت لو أنك تتوقف عن التحدث بهذه الطريقة فأنت... أنت محق في النهاية.
- إذن كيف تريدين أن أكون؟
أحنت صوفي رأسها:
- فقط لا... لا تستفزني دائماً.
- أوه فهمت. لا تستطيعين مجاراتي، هذا ما في الأمر؟
نظرت إليه. كانت عيناه لامباليتين وفمه ينمّ عن تهكم وقالت بالدفاع:

٥ ـ الماضي يؤذي الجميع!

عاد آدم متأخراً بعد ظهر اليوم التالي، ودخل غرفة المكتب وأغلق الباب خلفه. لم تتوقع صوفي أن تراه قبل ذهابها مع هوارد. لكن عندما نزلت السلالم الساعة السابعة إلا ربعاً وجدته في الردهة مسترخياً. كان لا يزال يرتدي ثياب السفر وبدا تعبيره متكهراً عندما استدار ووجدها تتردد عند المدخل.

تقدمت صوفي بحذر في الغرفة، وشعرت بانزعاج وهي تحاول أن تبدو عادية في حديثها:
- هل كانت رحلتك جيدة؟
تمهّل آدم قبل أن يجيبها باقتضاب:
- ناجحة.

- الحمد لله أن بوز لا يشبهك.
- لا يشبهني؟ أليس مثلي؟ هل أنت متأكدة من ذلك؟
- طبعاً أنا متأكدة. إنني أستمتع برفقته.
- ولا تستمتعين برفقتي؟
- لا تتهمني بشيء، لم الله.
- اعتقدت أن الاستمتاع هذا حسي.
- تقول أنك حاذق أليس كذلك؟
- ليس بصورة خاصة. كانت ملاحظة معقولة.
- أوه!

استدارت بانزعاج، فساعة لم يكن في امكانها أن تربح مناقشة ضد مقاومة التي لا تتزحزح.

- أعتقد أنك تحب... إيذائي.

اتكأ أدم على الرف:

- لا أشاطرك الرأي.
- بل أنك تفعل، وأرغب في صراحة، فلماذا لا تتحدث إليّ من دون أن تكون متهكماً طوال الوقت؟
- هل هذا ما أفعل؟
- أنت تعلم ذلك!

هز أدم كتفيه العريضتين بكسل. ولاحظت عضلاته القوية تحت قميصه القطني الرقيق.

- إذا امتنعت عن أن أكون، ولاستعمل تعبيرك، متهكماً، معك هل ستتخلين عن هوارد؟

ارتفع حاجبا صوفي دهشة:

- تعني... تعني أن أرفض الخروج معه؟
- ليس الليلة، فالأمر مقضي. أعني... لا تقبلي أي دعوات في المستقبل.

بدت الحيرة على صوفي وسألته:

- ولكن لماذا؟

ضاقت عينا أدم:

- انه طلب مباشر. اجيبي.
- ولكن ماذا في استطاعتي أن أقول؟ سيبدو الأمر... وقحاً جداً.
- أخبريه أنك تزمعين القيام بأمور أخرى. أخبريه أنك تخرجين معي.
- معك؟ اندهشت صوفي، ولكنه سيعلم أن الأمر غير صحيح.
- سأجعله صحيحاً.
- ولكن لماذا تفعل ذلك؟
- هوارد صديقي، ولا أريده أن يتأذى مرة أخرى. إذا كان في مقدوري منع ذلك.

ترددت صوفي:

- ما الذي يجعلك متأكداً أنني سوف أؤذيه؟
- ستعودين الى انكلترا، أليس كذلك؟ عندما تنتهي هذه اللعبة!
- ماذا تعني بهذه اللعبة؟

وخفق قلبها بشدة.

- مجرد اصطلاح، هذا كل ما في الأمر. في أي حال، الأمر فعلاً لعبة أليس كذلك؟

أعني... الوضع بمجمله

لم تعرف صوفي ما تجيب. لكن لحسن حظها سمعا صوت محرك سيارة تقترب من الساحة في الخارج.

وقال أدم بجفاف:

- يبدو أنه حضر. لا تزعجي نفسك. سيدخله أحد الخدم.

هزت صوفي رأسها وقالت باضطراب:

- أتمنى لو أنني غير ذاهبة.

هز كتفيه واعتمل في وقفته:

- لماذا؟ ستمضين وقتاً طيباً في الغالب.
- بعد هذا الذي قلته؟
- نعم. ضعي هذا الحديث جانباً.
- كما لو أني أستطيع.

- حسناً.. تذكريه الآن. فقط لا تخططي لأي شيء ليوم غد، لانني سآخذك الى جنيفرا.
- جنيفرا؟ اين هذا المكان؟
- انه خليج صغير، على مسافة من هنا، ولا يمكن الوصول اليه الا عن طريق البحر. والشاطئ هادئ، والمياه ضحلة. فكرت أنك قد توفقين تجربة الغطس.
- الغطس؟ شعرت صوفي باثارة خفيفة، يبدو الأمر مثيراً.
- انه كذلك.
كان ذلك صوت بيرز، واستدارت صوفي نحو الباب لترى انه دخل الغرفة للتو.
- هل كان والدي يخبرك عن نزهة الغد المقترحة؟
- انت تعلم؟
- طبعاً.
- اوه، فهمت. فجأة فقدت النزهة المقترحة شيئاً من جاذبيتها. هل ستأتي انت أيضاً؟
اجابها بمرح:
- حاولي ان تمنعيني. لا استطيع الانتظار لاجعلك تشاهدين ما يوجد تحت الماء.
هزت صوفي رأسها وابتسمت ابتسامة ظريفة وشعرت بعيني آدم تحدقان فيها. لم يكن لحديثها علاقة بقراره ان يأخذها في نزهة. ولا شك أن والده هو الذي اقترح الأمر. فهو أيضاً أراد ان يبقيها بعيدة عن هوارد.
جاءت احدى الخادمات الى باب الردهة وقالت:
- السيد فليمنغ هنا يا سيد آدم جاء من اجل الآنسة ايف.
- اطلبي منه ان يدخل يا راكيل.
لمحها آدم بعينه وهو يقطب، سيكاره في منطقة جانبية:
- هل تتناولين شراباً قبل ان تخرجي يا ايف؟
لم يتسع الوقت لصوفي كي تجيب، فقد دخل هوارد فليمنغ الغرفة. وبدا انيقاً وجذاباً وهو يرتدي بدلة بنية غامقة وعليه مظهر القلق، نظر آدم

التعب من جراء السفر لكن مع ذلك، فلو انها كانت صادقة مع نفسها لاعترفت بانها تفضل البقاء في المنزل تلك الامسية، على قضاء امسية وجهاً لوجه مع رجل توقع يوماً ما أن يتزوج جنيفر...
وعلى غير توقعها، تمتعت صوفي بالامسية. أخذها هوارد الى نادٍ ليلي في بورت اوف سباين، وبعد عشاء شهي تفرجا على الراقصين واستمعا الى المزيد من الموسيقى التي كانت الفرق تعزف عليها استعداداً للكرنفال المقبل. كان الجو مفعماً بالاثارة الطليقة التي لم تترك احداً من دون ان تؤثر فيه، ووجدت صوفي نفسها تتمايل مع الموسيقى وتتمنى ان ترقص على انغامها. وحسدت النساء اللواتي كن يرقصن ويتمايلن مع الالحان بانسجام تام وتساءلت عما يمكن ان يفكر به هوارد لو انها تخلت عن انضباطها وحذت حذوهن. شعرت بأنه لن يوافق، فمع انه بدا رجلاً طريفاً وودوداً شعرت فيه بشيء من الانقباض يقضي على اي اندفاع في التصرف. كان شعورها هذا حدسياً وتساءلت اذا كان لهذا الشيء علاقة في طريقة تصرف جنيفر في السابق.
ثم عادا الى المنزل وهما يتنسمان هواء الليل العليل، وأشار هوارد الى الأنوار الثلاثة التي ظهرت في البعد. كانا قد تحدثا كثيراً تلك المساء احاديث بسيطة عن الموسيقى والافلام، وكتب قرآها، ولكنهما ظلا صامتين في طريق العودة وتساءلت صوفي عما كان يدور في ذهن هوارد. كانت هي مشغولة بمشاريع الغد، ولم تستطع أن تنكر شعور الاثارة الذي انتابها لمجرد التفكير بها. ورفضت ان تتذكر ما قاله آدم وادركت انه لو شك في هويتها لكشف الأمر.
عندما اوقف هوارد السيارة في باحة المنزل اطفأ المحرك والتفت نحوها قائلاً:
- لقد استمتعت كثيراً بهذه الامسية يا ايف. أرجوك قولي انك ستأتين الى كرومال غداً!
تكلفت صوفي حزناً بقدر ما تستطيع وهزت رأسها معتذرة، وقالت له:
- اخاف الا استطيع.
وكانت مسرورة لانها لم تضطر الى الكذب وأرفقته:

- خالي... خالي دينو سيأخذني للإبحار غداً.
- آدي؟
قطب هوارد حاجبيه مندهشاً:
- فهمت أنه سيقضي النهار مع جانين.
- جانين!
- بالتأكيد. طبعاً لاحظت كيف هي الأمور بينهما.
حبست صوفي أنفاسها وسكتت برهة:
- كلا. كيف هي؟
تنهد هوارد، ومرر أصابعه حول مقود السيارة:
- حسناً. أعتقد بأنهما سوف يتزوجان يوماً ما. ليس هناك من داع للعجلة. فهما يعرفان بعضهما منذ مدة طويلة.
وقلت صوفي ألا تظهر صدمتها:
- أنا... لم أعلم.
هز هوارد كتفيه:
- الأمر معروف هنا. وأعتقد أن أحداً لم يعد من الضروري [illegible] الأمر، [illegible] منذ وفاة جيري...
- جيري؟
- جيرالدين، زوجة آدي.
- أوه فهمت. أخشى أن معرفتي للعائلة محدودة.
- لا بد أنها كذلك.
أومأ هوارد برأسه وتابع:
- وبالطبع لا أحد يتحدث عنها كثيراً هذه الأيام. فقد مضت عشر سنوات على وفاتها.
فتحت صوفي فمها لتسأل مزيداً من الأسئلة عن جيرالدين المجهولة ولكنها أغلقته ثانية. لم يكن الأمر يعنيها خاصة عندما تذكرت أن لا مكان فعلياً لها في هذه العائلة. ولكنها لم تتمكن من تناسي الأمر كلياً فقالت تحثه على الحديث:
- قلت... منذ أن توفيت جيري.

- ماذا؟! قطب هوارد. أوه، نعم، منذ توفيت جيري، لازمته جانين كظله. وكانت بعمرك طبعاً. أكثر بقليل من فتاة صغيرة عندما ترمّل آدي، ولكنها أحبته دائماً وأعتقد أن آدي يفهمها.
شعرت صوفي بشيء من الغثيان. فالشراب الذي تناولاه لم يناسبها كثيراً.
- حسناً، علي أن أذهب.
- ألن تغيري رأيك بالنسبة إلى يوم غد؟
- لا أستطيع.
قالت صوفي وهزت رأسها بالنفي.
- حسناً. سأتصل بك، بعد بضعة أيام. ربما تستطيع تحديد موعد مناسب لنا.
تلكأت صوفي ولم تجبه وبحثت عن مقبض الباب وفجأة فتح الباب وخرجت لتجد أن هوارد استدار حول السيارة وفتح الباب لها.
- [illegible] مساء.
وانطلقت نحو البيت.
- تصبحين على خير [illegible]
ما إن دخلت المنزل حتى [illegible] براندت [illegible]
- أهلاً، هل استمتعت بهذه الأمسية؟
- كثيراً، شكراً لك.
كان صوت صوفي ضعيفاً ونظرت براندت إليها بحدة.
- ما الخطب؟ تبدين شاحبة، واستوقفت عيناها. هوارد لم...
- هوارد لم يفعل شيئاً فقط أشعر بانزعاج قليل. هذا كل شيء. فالمأكولات غنية بالتوابل على ما أعتقد.
- هاه.
بدا براندت غير مصدقة.
- حسناً ادخلي الردهة وتناولي بعض الشراب قبل الذهاب إلى غرفتك.
كادت صوفي أن ترفض لكن صورة غرفتها الفاتنة جعلتها تغير رأيها. فهي لم ترد أن تراجع نفسها كثيراً في تلك اللحظة. وسبقت براندت إلى

الغرفة الجميلة وارتاحت عندما وجدتها خالية. وجلست في احد المقاعد الوثيرة وعندما سألها براندت عما تود ان تشرب.

- بعض عصير البرتقال من فضلك.

- هل هذا ما تريدين ان تشربيه وانت تشعرين بالانزعاج؟

- حسناً، لا اعتقد انه يكفي. أين الآخرون؟

- روزا وبيرز اخلدا الى النوم. وآدم لم يعد بعد.

وانت صوفي الا تبدو فضولية:

- آدم خرج؟

- نعم، ذهب لزيارة عائلة فليمنغ.

بلعت صوفي ريقها بصعوبة وتناولت كأسها من براندت ونظرت اليها بتركيز.

- أخبرني، عزيزي... أن آدم وجانين...

- اوه، هكذا؟ في الواقع يجب ألا تهتمي كثيراً لما يقوله عزيزه.

سألته صوفي بدهشة:

- لماذا؟

- لعائلة فليمنغ الارتباط بعائلتنا منذ سنوات، حتى قبل والدتك، لا أتوقع ان يفترق آدم بجانين.

- ولكن لماذا؟ الا يحبها، هل هذا ما تريد ان تقوله؟

- لا دخل للحب في الموضوع يا عزيزتي ايف، انك بسيطة جداً في بعض الأحيان! خلافاً لانطباعي عن النساء الصحفيات تعلمت شيئاً ما عن أولادي، وهو انهم لا يحبون ان يجبرهم احد على القيام بعمل ما. ولذا ما قرر آدم ان يتزوج مرة اخرى، وبصراحة لا ارى اي احتمال ان يحصل الأمر، فسوف يفتش عن امرأة بنفسه. وجانين مسلية كثيراً. وقد ذهبت معه الى لويانغو.

شدت صوفي قبضتها على الكأس.

- ولكني ظننت انكم...

- حسناً، ربما اسأت التعبير، ذهبت الى لويانغو على متن الطائرة ذاتها، ونزلت في الفندق ذاته.

- تعني، من دون دعوة؟

ابتسم براندت:

- ان جانين امرأة مغرية جداً.

- اعلم ولكن...

- ولكن، انت لا تفعلين امراً مماثلاً؟

قال هذا مبيناً حقيقته. اجابته صوفي باصرار:

- في الواقع كلا.

- ربما لم تصادفي بعد الرجل الذي سيقلب عالمك رأساً على عقب. انا متأكد تماماً من أن والدتك كانت ستقوم بعمل فظيع لو أني منعتها من الذهاب مع والدك.

كانت هذه هي المرة الاولى منذ وصولها التي يتحدث فيها عن هروب والدة ايف وتساءلت صوفي عما اذا كان وجودها هنا الآن يساعده في النظر الى المسألة بمرارة أقل. فاذا كان الامر كذلك، تكون قد حققت شيئاً ما على الأقل. لكن ما قاله براندت قضى على هذا الاعتقاد.

- انت لا تذكرينني بوالدتك، فابوك كان انتهازياً.

أحنت صوفي رأسها وتجاسرت ان تقول:

- لقد... أحبته والدتي، كما تعلم.

تنهد براندت:

- هل تعني؟ لكنه لم يسعدها. ربما لو أنها لم تمت عند ولادتك، لكانت الأمور تغيرت، واختلفت صورته. ولكن فات الأوان الآن. علينا ان نحاول نسيان الماضي ونحيا الحاضر على أفضل وجه.

لم تعلق صوفي على ما قاله. كان واضحاً أن حديثه عن ابنته يزعجه وتساءلت لأول مرة عمّا كان يمكن ان يكون رأيه بايف. من كانت تشبه في تصميمها على الحصول لكل ما تريده؟ جيفري، التي هربت من اجل الحب، أم جيمس، الذي تحدّى هذا الرجل المتعجرف ليتزوج المرأة التي اختارها. انهت كأس البرتقال ونهضت واقفة.

- حان وقت النوم على ما اعتقد.

أومأ براندت برأسه وكان تعبيره لطيفاً، وهمس وهي تمر امامه:

- حاول ألا تسيئي الظن بي.

توقفت صوفي لما شعرت من عذاب في صوته:

- أوه، أرجوك كما قلت، الأمر كله من الماضي. لا يفيد أن نعقد الأمر.

- شكراً لك يا عزيزتي. اذهبي إلى النوم الآن، سوف تخرجين مع بيرز وآدم غداً، أليس كذلك؟

- هذا صحيح، وضغطت صوفي على ذراعه بلطف وهمست، تصبح على خير يا رالف.

وبحركة اندفاعية انحنت إليه وطبعت قبلة خفيفة على خده. لكن حتى قبل أن تختفي في غرفتها شعرت أنهما لم يعودا وحيدين. رأت آدم يقف على عتبة الباب ينظر إليهما بامتعاض، ونظرة تهكم تغطي ملامحه الشديدة الجاذبية.

٦ - الآلام تكشف الحقيقة!

تلألأت أمواج خليج جينيفرا برنز على الرمال المبيضّة من أشعة الشمس. كان المكان منعزلاً تماماً كما وصفه آدم تحوطه صخور عالية محاطة بالطحالب التي بدت كأنها أصداف قنعة قديمة. رسا المركب الشراعي على مسافة من المكان حيث وقفت صوفي وحيدة في ظلال النخلة. وفكرت في ما كان يمكنها أن تفعله لو أن آدم وبيرز لم يعودا لاصطحابها. لم تعرف كيف تقود المركب الشراعي ولم يكن مزوداً بمحرك.

استدارت واستلقت على صدرها، بالتأكيد سوف يعودان. كان بيرز سيعلمها كيف تستخدم الأشرعة. لكنه ذهب مع آدم للغطس ناحية الميناء قبل أن تقوم بذلك. وشككت صوفي في الأمر. في أي حال، مضى على وجودها هنا أكثر من أسبوع، وعاجلاً أم آجلاً كان عليها أن تبدأ

في التفكير في العودة الى انكلترا. تجنبت ذكر الامر لبرانلت لاسباب واضحة. لكنها اعترفت لنفسها بصدق أن فكرة المغادرة أصابتها بالتقاعس، لم ترغب في العودة فعدا عن جمال البيئة، أصبحت مولعة ببرانلت وبيرز، لكنها لم تحتمل التفكير بمشاعرها تجاه آدم.

اعتدلت جالسة ووكعت على ركبتيها وراحت تراقب حركات سرطان يشق طريقه بارتباك من الشاطئ. بدأت ترى أن هذه الهزلة التي دفعتها ليف الى القيام بها قد يكون لها ردود فعل من شأنها أن تقضي على أي أمل يراودها بالسعادة. ونهضت واقفة محاولة أن تدفع تلك الافكار بعيداً عنها. كان دفء الشمس مثل البلسم لروحها المضطربة وبسطت جسمها بخنوع ولم تلاحظ أن أحداً يراقبها إلا بعد فوات الأوان. كان آدم قد خرج من الماء ووضع قارورة الأوكسجين في المركب.

عوت ذراعاها الى جانبيها وانحنت تنفض الرمال عن منشفتها. تحاول فعل أي شيء، يحميها هذا الشعور المجنون الذي انتابها، وكان يدفعها الى النظر في عينيه والاعجاب بجسمه وهو يرتدي مايوه سباحة أزرق. تقدم منها بصعوبة وهو لا يزال يضع الخفافين في قدميه وشكت من اخفاء ارتباكها بأن ضحكت وسألته بمرح:

- تبدو كطائر البطريق.

ونظر الى قدميه بمرح:

- لدي مثلهما لك أيضاً. وهناك القناع وأنبوب الهواء. هل تظنين أنك تستطيعين وضعهم؟

جلست صوفي على الرمال ثانية:

- سأحاول. أين بيرز؟

- سيعود قريباً. يعلم أني تركته.

أومأت صوفي وبدأت تضع قدميها في الخفافين. كان الامر سهلاً، لكن عندما حاولت النهوض كان الامر أصعب مما ظنت. جهدت في ألا تسقط خلفاً بالمرة وهي تحاول الوقوف وبعد أن راقبها آدم لفترة، انحنى ومد يده إليها. أمسكتها صوفي وسحبها بقوة، ثم تركها فوراً. تابع قائلاً:

- والآن! ضعي هذا على أنفك. هكذا.

وساعدها في ذلك.

- هناك أنبوب الهواء. أترين، هذه القطعة تضعينها على فمك والأنبوب مركز على قناع الوجه . . . انتبهي!

أومأت صوفي برأسها، وجربت وضع القطعة المطاط في فمها. أخرجتها ثانية وكشرت:

- انها كبيرة جداً. أليس كذلك؟

- ليس كثيراً، لكنك عصبية قليلاً. هذا كل ما في الأمر.

كان آدم صبوراً أكثر مما توقعت صوفي:

- والآن، حاولي مرة أخرى. أترين هذه الكرة عند طرف أنبوب الهواء؟ ما دمت تتنفسين بصورة طبيعية فانها تبقى في مكانها. لكن إذا غطست تقطع عنك الهواء وعليك أن تقومي بسرعة. أفهمت؟

- كيف أعلم بالأمر.

- أوه، ستعلمين. هل نجربه؟

كانت المياه دافئة جداً قرب الشاطئ، لكن صوفي وجدت نفسها ترتجف من الخوف.

- استرخي ليس هناك ما يخيف.

- أنا . . . أعلم.

تفحصت صوفي فم الأنبوب قبل أن تضعه في فمها:

- ولكن ماذا ستفعل انت؟ ظننت أنك ستأتي معي لكن لا معدات معك؟

- إني قادم معك ولن أحتاج إليها.

أكد آدم الامر لها ومرر يده عبر شعره بلا مبالاة وأضاف:

- والآن، ابدأي السباحة. حاولي أن تغطسي تحت صفحة المياه. ابقي وجهك باتجاه أسفل وتنفسي بصورة طبيعية.

فعلت صوفي كما قال لها. لم يكن الامر سهلاً في البداية. وركزت على تقليد تعليمات آدم كما أسعدتها ألوان السمك الزاهية والحياة البحرية في العمق. سبحت سمكات صغيرة بالقرب منها واندفعت عبر صخور مرجانية عكست ألوان الشمس والمياه المتعمقة. شعرت بأن آدم يسبح قربها وكانت

مطمئنة.

ولكنه تقدمها قليلاً وعندما أدركت صوفي أنها وحيدة حركت قدميها بسرعة أكبر كي تلحق به. ولسوء حظها اندفعت أكثر نحو القاع، وانسد أنبوب الهواء وامتلأ فمها بالمياه المالحة. وعلقت للحظة وعلقت وهي تتخبط في الماء وتسعل محاولة أن تلتقط أنفاسها.

وبدا وكأنما آدم أصبح قربها فوراً. تحدث اليها بلطف ونزع القناع وأنبوب الهواء عن وجهها وسألها عندما بدأ تنفسها ينتظم:

ـ اتريدين أن تعودي؟

لكن صوفي هزت رأسها نفياً:

ـ أنا على ما يرام الآن.

أحست بعدم ثبات واستدارت ونظرت اليه تسأله:

ـ هل . . . هل تساعدني في وضع القناع ثانية؟ لست متأكدة تماماً كيف أضعه.

أومأ آدم برأسه موافقاً واقترب منها وقال باقتضاب:

ـ ضعي يديك على كتفي. لا أستطيع تثبيته عليك اذا استمريت في الابتعاد.

وضعت صوفي يديها على كتفيه ووضع القناع بسرعة في مكانه وناولها فم الأنبوب وابتسمت صوفي قائلة:

ـ شكرا لك. آسفة لاني كنت بلهاء.

ردّ عليها آدم بشيء من الحدة:

ـ لم تكوني بلهاء. تنقصك الخبرة، هذا كل شيء.

رفعت صوفي كتفيها ووضعت رأس الأنبوب في فمها وتنفست بعمق وبدأت تسبح مجدداً. بقي آدم قريباً منها هذه المرة. لكن بعد مرور ربع ساعة أشار عليها بالعودة. أرادت صوفي أن تحتج إلا انها لم تعترض. وسبحت وراءه طائعة، الى أن وصلا الشاطئ، وسارا خارج المياه. كان بيرز قد عاد وفتحت صوفي حقيبة الغداء التي حضرتها فيولت لهم. تكوّن الغداء من الدجاج والسلطة والبطاطا المقلية والفواكه والمرطبات التي وضعها بيرز في المياه قرب المركب كي تبرد. بعد الغداء استرخى بيرز لفترة قصيرة ثم سار

نحو المركب ليتسلى، وبقيت صوفي وحدها برفقة آدم.

ظنت أنه كان نائماً لكن عندما نهضت لتشد منشفتها فتح عينيه ورفع نظارتيه السوداوين على جبينه. سألته صوفي معتذرة:

ـ هل ازعجتك؟ لم أقصد . . .

هزّ آدم رأسه بكسل:

ـ لم أكن نائماً!

ـ أوه. حسناً.

عادت صوفي الى الاستلقاء ثانية. ولامست يد آدم جانبها لا ارادياً فابتعدت فأوضح تصرفه هذا:

ـ حاولت ابعاد . . .

فانخفضت خجلاً وكان ردّ فعلها مبالغاً به فشعرت بالارتباك وقالت:

ـ نعم . . . لم أعلم ما الذي لمسني هذا كل شيء. لقد توجست.

ـ هل فاجأتك؟ اني آسف.

لكن نبرته التهكمية كانت واضحة، وعادت صوفي تتأمل المحيط وكتفاها مشدودتان وعلّق آدم:

ـ نسيت كم أنت حساسة فيما يخصني.

أطبقت صوفي شفتيها وعلقت بغضب من دون أن تنظر اليه:

ـ أوه، لا تطري نفسك! لن أفقد الوعي فقط لأن آدم سالت تحسبك بوضعه يده عليّ!

تمدّد آدم بارتياح على الرمال الدافئة وقال معلقاً بلطف:

ـ لا أدري ما قصدك.

ـ بل تدري.

ووضعت يديها تحت ذقنها وأوضحت قائلة:

ـ لا بد أن التأثير الذي لك على بعض النساء هو أمر ملاحظ، وأنا واثقة من ذلك.

ـ من يلاحظ ذلك؟

ونظرت صوفي اليه ببرود:

ـ انت بالطبع.

نزع آدم نظارته ونظر اليها متفحصاً:
ـ يضحكك ابنة اختي، تشعرين اني مغرور، هل هذا ما في الأمر؟
ترددت صوفي، مدركة تورّطها التدريجي في الحديث:
قالت وكأنها تخاطب نفسها:
ـ اوه... هل يهم الأمر.
ـ نعم أعتقد ذلك.
وضع آدم نظارته جانباً وأمعن فيها بعد أن أشاحت بوجهها بعيداً عنه. وقال:
ـ أريد أن اسمع المزيد عن رأيك الذي كونته عني. هل أنت متأكدة بأنك موضوعية؟
غرست صوفي أصابعها في الرمال:
ـ لا موجب لبحث الامر أكثر.
ـ الا تفهمين أني أريد أن اسمعك، فأنت تحيّرينني. كيف يمكن لشخص في وضعك أن يعلم اذا كانت النساء تجدني جذاباً أم لا.
تمنّت صوفي لو أنها لم تقل شيئاً عن هذا الموضوع:
ـ انه امر واضح.
ـ حقاً؟ أخبريني المزيد!
هزّت صوفي كتفيها بيأس:
ـ انك تعيد الكرة أليس كذلك! أقصد، تتعمد ازعاجي.
ونظرت نحو الشاطىء الى حيث كان بيرز في المركب يعالج شيئاً ما في الاشرعة.
ـ من حسن الحظ أنّ ابنك لا يستطيع أن يسمعك.
مال آدم برأسه الى الجهة الاخرى متحدياً:
ـ لماذا؟ ما الذي قلته ولا يجوز أن يسمعه؟
هزت صوفي رأسها، غير قادرة على التفكير في أية اجابة. ونظرت اليه. ومن هذه المسافة القريبة استطاعت أن ترى النقاط الصفراء في عينيه العسليتين ورموشه الطويلة الكثيفة، وعضلات فكه القوية. كان شعره داكناً في الشمس وزاد سائغاً في سمرته. فكرت أنها عندما اصبحت

نظرته أشدّ تركيزاً واضطرت الى أن تنظر بعيداً وهي تكاد تكون مصدومة من المشاعر التي حركها فيها. وشعرت بعصبية عندما أحسّت بأصابعه تلامس بشدة يدها لكنها لم تقل شيئاً.
ـ لقد اصبحت سمراء... وهذا يلائمك.
بلعت صوفي ريقها بعد أن استعادت هدوءها:
ـ ما الذي تحاول ان تفعله يا خالي آدم؟ تبيّن لي خبرتك بالنساء؟
اسودّت عينا آدم غضباً وامسك بذراعيها بقوة:
ـ انتبهي... يا ابنتي ربما تزعجني هذه الامور أقل مما تزعجك!
ـ ماذا تقصد؟
ـ اعني انك قد تحصلين على اكثر مما راهنت عليه عندما أتيت الى هنا.
ـ انت... انت لا تستطيع أن تخيفني.
ـ لا استطيع؟ اعتقد أني استطيع، بل أنا متأكد من ذلك.
ـ اترك ذراعي! انك تزعجني.
ـ صحيح؟
لمعت عينا آدم بصورة خطرة:
ـ لا تقولي لي ما علي عمله!
ـ لم لا؟
لم تعرف صوفي ما الذي كان يدفعها لأن تخاطبه بمثل تلك الطريقة. علمت انها كانت تخاطر لكنها شعرت بالاثارة لعلمها أنها قادرة على اثارة أعصابه ولو بصورة طفيفة. نهضت واقفة لكنها تعثرت ووقعت على الرمال. أمسك بها بعنف وشعرت بالخوف وأصبح تنفسها سريعاً وغير منتظم. تنهدت بعمق وشعرت بقبضته تثقلها. وقف آدم ونظر اليها بغضب ثم استدار بعيداً وبدا عليه الاحتقار ولم تعلم اذا كان احتقر نفسه أم يحتقرها هي. استلقت صوفي على الرمال مذعورة بالشدة التي حصلت لكن بدا واضحاً أنّ آدم ملّ رفقتها لأنه سار بعيداً عنها نحو المركب وجعلها تشعر بوحدة لم تشعر بمثلها قبلاً.
صار لدى صوفي الوقت الكافي خلال اليومين التاليين لتفكر بأحداث ذلك النهار الكارثة. بعد أن قرر آدم رغماً عن والدته أن يقوم المركب بالأبحار

الذي سيبحر في اليوم التالي في رحلة صيد تستغرق يومين، وكان بيرز متشوقاً جداً لمرافقته. ومع أنَّ رجل أعمال من فنزويلا وزوجته استأجرا اليخت قبل اسبوعين، أدركت صوفي أنَّ آدم قرَّر الذهاب فقط كي يتجنبها. أقنعت نفسها بأنها سعيدة لذهابه، وبأنها ستستمتع في غيابه لكنها ادركت أنها تخدع نفسها. فعلى رغم ما حدث بينهما، شعرت نفسها مجذوبة نحوه أكثر فأكثر، على الأقل فكرياً. ومرّت لحظات في طريق عودتهم من خليج جيمبز عندما شعرت بأنها تريد أن تذهب إليه وتعتذر عن تصرفاتها وتطلب الغفران. لكنها بالطبع لم تفعل، وها هو الآن يتركها وحيدة مرة ثانية.

في غياب بيرز، أمضت صوفي وقتاً أقلّ في السباحة، وأخذت تطوف في أرجاء المنزل الأنيق على غير هدى. علمت أنَّ عليها مقابلة برانت في موضوع مغادرتها. ومهما يكن من أمر، عليها الإلحاح. لقد كان من الأفضل لها مغادرة المكان والابتعاد عن آدم الذي كان يشوّش أفكارها. فالغيرة التي شعرت بها عند خطبتها تتوهم أموراً كثيرة. وأملت في أنَّ الرجوع الى سانتشوش، وتنظيم أمور عملها، سينسيانها كل هذا الاندفاع الساذج الذي شعرت به تجاه رجل ظنّ أنها ابنة أخته.

في صباح اليوم الذي غادر آدم وبيرز المنزل، تناولت الافطار مع برانت وهو حدث غير عادي لكن برانت هو الذي رتّب الأمر على ذلك النحو بسبب غياب الآخرين. وشعرت صوفي أنَّ الوضع ملائم جداً، وببعض التردد ذكرت أنها استفسرت عن الطائرة المغادرة الى انكلترا لكنها، لم تكن مستعدة لردة فعل برانت. لقد دفع كرسيه الى الوراء ووقف امامها بعصبية ويداه تنقبضان على جانبيه. وقال بحنق:

ـ لا يمكن أن تكوني جادة.

طرفت عينا صوفي:

ـ لم لا؟

ـ لم لا؟ لم لا؟ لانني لن اسمح بذلك، هذا هو السبب.

حاولت صوفي أن تبقى هادئة:

ـ برانت، يجب عليَّ أن أغادر

انحنى الى الامام ووضع يديه على الطاولة أمامه ونظر اليها نظرة ثاقبة.

ـ منذ بضعة أيام فقط سألتك أن تفكري في البقاء هنا لمدة سنة، والآن تأتين اليَّ بعد أقل من أسبوعين على وجودك هنا لتخبريني بأنك استفسرت عن الطائرات المغادرة! كيف تتوقعين أن يكون ردّ فعلي على هذا الأمر؟

شعرت صوفي بشيء من الخجل، فقط لو كان بإمكانها أن تخبره كم رغبت في البقاء لكنها أجبرت نفسها على قول ما كانت ليف تتوقع منها أن تقول واحتجت تجاه ذاتها؟

ـ لكن يا برانت، خطَّطت للبقاء لمدة اسبوعين أو ثلاثة اسابيع فقط.

ـ لكن هذا حدث قبل أن نلتقي... قبل أن يعرف أحدنا الآخر. ظننت وخيّل اليَّ، ربما عن سذاجة أنك بدأت تحبين الاقامة هنا... انك تحبينني!

ضحكت له صوفي باستسلام. ثم هتفت متأثرة:

ـ اوه يا برانت، انني أحبك وانت تعلم ذلك. لقد كنت لطيفاً جداً معي. سأفتقدك كثيراً.

ـ اذاً لا تذهبي، الأمر بهذه البساطة.

ـ كلا، انه ليس كذلك.

تساءلت صوفي كيف تفسر له الأمر من دون أن تؤذي مشاعره؟

ـ لا استطيع التخلّي عن عملي لمدة سنة وبالتالي أتوقّع متابعته من دون مواجهة مصاعب جمة.

ـ نعم، في الواقع، هذا ما ينبغي علينا التحدّث عنه، أليس كذلك؟

قطبت صوفي حاجبيها:

ـ لا أفهم.

ـ الآن يا ليف، دعنا لا نتظاهر بأننا لا نفهم. علمت عندما أتيت الى هنا بأني سأفعل ما في وسعي لابقيك هنا حتى لو تطلّب الأمر تأسيس وكالة صحافة خاصة بك، وأنا على استعداد للقيام بذلك.

دهشت صوفي. وفجأة تذكرت أمراً آخر قاله برانت في السابق، عن أنه مستعد أن يساعدها! ولكن أبهذه الطريقة؟ لم يبد ما قاله مهماً

وفكّرت. لكن صوفي وجدت نفسها تتساءل عما قالته إيف لها عن ذهابها. إلى أين ستذهب؟ ولماذا لم تذكر لها شيئاً. بالطبع كان الجواب عن ذلك جلياً. غير أنّ صوفي أحسّت أنّ في الأمر ما يتعدى قضية الاسترخاء الذي أبدته إيف لها. لكانت رفضت المجيء، وكانت إيف تدرك ذلك. ولكن هل يعقل أن تكون رغبة إيف ألاّ تخيب أمل جدها دافع ماضي؟ كانت الفكرة رهيبة وغير مستساغة. وتساءلت صوفي عن الورطة التي أوقعت نفسها فيها. والأمر الوحيد الذي تستطيع أن تفعله الآن هو أن تبرق لإيف تطلب منها أن تكتب وتخبرها عما كانت تأمل ربحه من خداعها هذا.

فجأة أدركت أن براندت كان لا يزال ينتظر جوابها، وهزّت رأسها بشيء من الدهشة وقالت:

ـ لا أتوقع منك أن تفعل شيئاً من هذا القبيل لي... أنا لا أمانع في البقاء صدقني. الأمر هو... أني يجب أن أعود.

ـ لكن ليس بعد أسبوعين!

أزاحت صوفي خصلة من شعرها خلف أذنيها:

ـ حسناً. ربما أستطيع أن أبقى... ثلاثة أسابيع.

ـ أربعة!

ـ أنا لا أقايض معك.

ـ ولكنك ستبقين لمدة شهر أليس كذلك؟

ندمت صوفي على موافقتها البقاء طوال النهار. في أي حال، كانت فترة الإجازة التي حصلت عليها لا تزيد عن ثلاثة أسابيع على أبعد تقدير. وهناك مشكلة التفكير بإيف. كان عليها الذهاب إلى بورت اوف سباين وإرسال البرقية بطريقة ما من دون أن يتنبه أحد. ويمكن لإيف أن تكتب إليها رسالة من دون أن تخاف فضح أمرها. لكن من الصعب عليها إرسال برقية موجهة إليها عن طريق شقة إيف في لندن من دون إثارة الكثير من الشكوك.

عاد آدم وبيرز ذلك المساء بينما كانت صوفي وبراندت وروزا يتناولون طعام العشاء على الشرفة. واتجها نحوهم ليعلنا عودتهما ولم تستطع صوفي أن تنكر شعور الطمأنينة الذي انتابها عندما علمت أنهما عادا إلى المنزل

سالمين. بدا آدم جذاباً وكسولاً وهو يرتدي سروالاً مبللاً وسترة مفتوحة حتى الخصر وذقنه غير حليقة. سألهما براندت وهو ينهض ليرحب بهما:

ـ هل سار كل شيء على ما يرام؟

أجاب بيرز بحماس:

عظيم! واصطدنا سمكة باراكودا كبيرة الحجم!

استمع آدم إلى ابنه يتحدث بحماسة وبدا صبوراً في إصغائه. ولم تكن هذه المرة الأولى التي لاحظت فيها صوفي الحب العفوي الذي كان بينهما، وشعرت بوخزة حسد. وقال آدم موافقاً بهدوء:

ـ كانت رحلة ناجحة إلى حدّ معقول.

ـ اصطدنا الكثير من الأسماك الصغيرة وسمكتين كبيرتين. وعدا عن وقوع ماريا من المركب سار كل شيء على ما يرام.

انتفض كتفا براندت:

ـ من وقع عن ظهر المركب؟

ـ ماريا زوجة دييغو. جرّتها سمكة الباراكودا إلى حدّ كادت أن تمسي وجبة طعام للسمكة وليس العكس.

استمعت صوفي إلى حديثه بحيرة. كان يمكنها أن تعلم بأنّ هناك امرأة دائماً في عالم آدم. كان براندت مهتماً فسأل:

ـ وهل هي بخير؟ ألم تصب بجروح؟

هزّ بيرز رأسه نفياً:

ـ أوه، كلا! غطس والدي في الماء وانتشلها. كانت غلطتها هي. غضب زوجها جداً، أليس كذلك يا أبي؟

هزّ آدم كتفيه بعدم اكتراث:

ـ لا بأس عليها. لم تصب بأذى. فقط تبللت واضطربت. هذا كل شيء. ونظر إلى صوفي متعمداً وأكمل: تميل النساء إلى الخوف، لسوء الحظ.

نظرت صوفي إلى السرطان الذي جثم في صحنها. وفقدت شهيتها بسرعة وأنّبت نفسها لأنها كانت تكترث لأي شيء يقوله أو يفعله آدم. لكنها لم تستطع أن تنظر إليه كما نظرت إلى براندت أو بيرز؟

فهي أحبّت كليهما وهما بالتالي أظهرا لها المودة ذاتها. لكن لماذا يتميّز آدم عن غيره؟

اعترفت أنها شعرت بوجوده على نحو لم تكن تعهده منذ لقائهما الأول في بورت أوف سباين.

أراد براندت أن يعرف المزيد عن الرحلة، لكن آدم اعتذر لاضطراره إلى الاستحمام وتبديل ملابسه. وعاد براندت إلى الطاولة يهز رأسه وهو يعود إلى تناول طعامه.

- تصوّروا ذلك. رفعت عن ظهر المركب بالفعل! دائماً أقول إن النساء على متن المراكب الشراعية هنّ أخبار سيئة!

تظاهرت صوفي بأنها منكبّة على التهام طعامها لكنها تتوق إلى معرفة المزيد عن المرأة الفنزويلية وسألته بعفوية مقصودة:

- أتعرف هؤلاء الناس؟

قطّب براندت حاجبيه وأجاب:

- آل فيغو؟ في الواقع، لا أعرفهم شخصياً. لكنني أعرف أن رافاييل يعمل في مجال النفط. مثلاً. تعامل آدم معه في السابق. لماذا؟

- كنت أتساءل فقط عن هم... أعني... هل هم أصدقاء له؟

- أتعنين أصدقاء آدم؟ ولكنهما ليسا من جيله.

لم تستطع صوفي إلا أن تتنهد بارتياح:

- أوه، اعتقدت... تصورت أنها أصغر سناً.

- لأن ماريا فيغو وقحة؟ أوه إنها لاتينية يا عزيزتي تثور بسرعة، وأعتقد أنها فقدت توازنها أثناء الصيد.

أومأت صوفي رأسها:

- أعتقد ذلك.

عندما عاد آدم وبيرز اكتشفت فيوليت لها أنها لم تنسها. تركت صوفي براندت يتحدثان إليها وانضمت إلى روزا في الردهة. وسرعان ما حضر براندت لكن قبل أن ينتهوا من تناول القهوة سمعوا صوت سيارة تقترب من المنزل. بدا براندت نافذ الصبر وأحسّت صوفي أنه اعتقد القادم هو أرد فليمنغ لا محالة. لكن الخادمة جاءت وقالت إن الآنسة فليمنغ قد جاءت.

دخلت جانين فليمنغ الغرفة وبدت سمراء وأنيقة وهي ترتدي ثياباً مرقطة. وبعد أن حيّت براندت وشقيقته، ابتسمت لصوفي ببرود وقالت:

- لكن أين آدم؟ اعتقدت أنه سيعود هذا المساء؟

اقترح براندت عليها أن تتناول كأساً من الشراب وقال لها:

- لقد عاد. لكنهما تأخرا عن موعد العشاء. سينضم إلينا قريباً.

- أوه. فهمت.

نظرت جانين حولها وأخيراً قررت أن تجلس قرب صوفي على الأريكة الطويلة الوثيرة:

- وعدته أن أحضر حالما يعود.

فكرت صوفي بالفلسفة في تصرف جانين إذ هي لم تضيع أي وقت، في أي حال، كان يحق لجانين كل الحق في أن تكون حيث هي.

جاء آدم بعد دقائق وهبّت جانين واقفة ترحب به:

- أهلاً، يا حبيبي. هل كانت رحلتك موفقة؟

ذهب آدم ليحضر لنفسه شراباً، رافضاً شرب القهوة التي عرضتها عليه عمته، ورافقته جانين. تحدثا معاً بصوت خافت في الزاوية ثم استدار آدم وقال إنهما قررا الذهاب إلى بورت أوف سباين لتمضية السهرة.

- فكرة جيدة.

هتف براندت بحماسة غير منتظرة وأضاف:

- ولم لا تأخذ إليف معك؟ فهي أمضت يومين طويلين عندما كنت أنت وبيرز بعيدين.

أنا متأكد أنها ستستمتع بالخروج هذه الليلة.

ارتبكت صوفي وبدأت تتكلم:

- أوه حقاً. إني مسرورة في البقاء هنا.

- هراء! يمكن لبيرز أن يذهب وهكذا تكونوا أربعة.

- بيرز أخلد للنوم.

قال آدم بجفاف وأضاف:

- كان متعباً. لذا لن يذهب إلى أي مكان. ولكن إذا أرادت... فيمكنها أن تنضم إلينا...

قالت صوفي باصرار:

ـ كلا كلا، شكراً لك. أفضل ألا أتعب. ثم اني أحس بصداع

بدا الارتياح ظاهراً على جانين. لكن آدم لم يقتنع بحجتها البسيطة.

وزفر برانفت بنفاد صبر وقال:

ـ هواء الليل سيريحك من الألم!

ـ كلا، هزت صوفي رأسها نفياً، شكراً لكما في أي حال.

وتنفست جانين بسهولة أكثر:

ـ حسناً، سوي الأمر الآن. هلاّ نذهب؟

ضحكت آدم وبدا عليها أنها متشوقة لابعاد آدم قبل أن يخترع عذراً آخر.

أومأ آدم برأسه وقال وهو يشرب الشراب:

ـ لم لا؟

ثم نظر اليها وشعرت صوفي بألم حاد كالسكين في معدتها.

نامت باكراً تلك الأمسية، قرابة العاشرة لكنها لم تستطع أن تغفو. واستمرت تفكر بآدم وجانين وهما يقضيان الأمسية في مكان ما متعانقين. وهذا الفكر سرق النوم من عينيها. وأخذت تدرك أن موافقتها على البقاء اسبوعين آخرين ستجعل الأمور أشد قساوة. فلم يعد ينفعها إنكار الأمر. فقد أدركت أنها تحب آدم، ولم يكن في وسعها أن تفعل شيئاً حيال هذا الأمر.

٧ ـ عواطف خائفة

كانت صوفي لا تزال مستيقظة قرابة منتصف الليل، انسلت من السرير وارتدت معطفاً حريرياً قمحي اللون ناسب قميص نومها. وسارت نحو الباب وخرجت الى الشرفة.

كان هواء الليل بارداً ومفعماً برائحة طيبة، وسمعت صوت تلاطم الأمواج على الصخور فشعرت بحنين مفاجئ، لأن تكون قرب الشاطئ، لتشعر برذاذ المياه المالحة على وجهها. واستدارت وعادت الى الغرفة ولبست صندلاً خفيفاً وفتحت باب غرفتها. كان البيت ساكناً، ولم يعكر صفوه سوى دقات الساعة. ولم يكن آدم قد عاد بعد، لكنها لم تهتم للأمر. لم تتوقعه أن يعود قبل الفجر. هبطت الدرجات الحجرية نحو الباحة. بدت الحديقة غريبة وغير مألوفة في ضوء القمر، وتحولت ألوان الزهور الى لون

نفسي. وتذكرت قصيدة قرأتها لشاعر والتر دولامار كانت القصيدة عن ضوء القمر أيضاً، وقد دعاها فضة.

وعادت إليها كلمات القصيدة وهي تهبط الدرجات إلى الرصيف:

في الليل.. يسيح القمر
صامتاً بطيئاً
بريقه الفضي هالة
تغمر الفضاء
يلبس أغصان الشجر فضة
يلتفت ولا يرى سوى
الثمار والأزهار الفضية.

ناسبت الكلمات تلك الأمسية الكئيبة. كانت قصائده دائماً تثير فيها ذلك الشعور بالخيال والغموض اللذين كانا جزءاً لا يتجزأ من طفولتها. هربت من خلال الخط بالقطار السنوات وقضت صبرها من عزلة على القصص والأشعار. ربما كان ذلك الشعور القوي بعدها بالخيال، هو الذي يمسك بها بالشيء، والذي كانت صنوانها الأولى وحيدة. وتأمر بعيداً عن خيال وأهل ملبت فيه تتلمس أنها قضت عمراً كبيراً في حياتها تعلق في باب تمنح عوضاً من أن تكبر بعيداً. كان الجو أكثر برودة على الرصيف، لكنها رحبت به بعد النهار الحار. تلاطمت المياه على الصخور ونثرت رذاذاً أبيض لمع في ضوء القمر الذي أشرق تلك الليلة قريباً منعكساً على الصخور. وجعلها شعور العزلة تعود إلى صعود الدرجات ثانية. وسمعت أصواتاً من أعلى. لم يكن هناك ضجيج محرك، لكن صوت الدواليب القوي كان واضحاً ثم سمعت صوت انغلاق باب سيارة. لا بد أن أحدٍ جاء بسرعة أكثر مما توقعت. توقفت عن الصعود. وأبعد وجوده على الأقل شعور الخوف الذي انتابها قبلاً. لم تعد تقوى على الصعود ومواجهته. قد يعتقد أنها تراقبه، ثم لأي سبب معقول يمكنها أن تعطيه لتفسير وجودها على الرصيف في تلك الساعة من الليل؟ كلا، كان عليها أن تنتظر بضع دقائق وتعطيه الوقت الكافي للذهاب إلى غرفته قبل أن تتجاسر وتدخل إلى المنزل مرة أخرى. ارتعدت. أصبحت البرودة التي تلذذت بها

ساعة خرجت، قارصة الآن. وأخذت أعصابها رعدة خاصة بها. ووجدت نفسها تتمنى لو أنها لم تترك غرفتها الآمنة نسبياً، حتى سريرها بدا أكثر جاذبية الآن.

وأخيراً، عندما شعرت أنها ترتجف من شدة البرد، صعدت الدرجات الحجرية بسرعة، محاولة أن تبقي نفسها بعض الشيء. وحتى أنها شعرت بقدميها تتصلبان وتؤلمان أصابعها وقد صعدت ببطء. كان المنزل مظلماً وتهب نسمة ارتياح. عبرت الباحة وصعدت الدرجات المؤدية إلى الشرفة. وأدارت مقبض الباب بقلق ثم تراجعت إلى الوراء مذعورة. كان الباب مقفلاً من الداخل ولم يكن في إمكانها الدخول ثانية. عبر أفكار الذعر الذي انتابها سابقاً بكل قوته. ماذا تستطيع أن تفعل الآن؟ كيف يمكنها الدخول من دون أن توقظ أهل البيت؟ عذّلت من روعها وحاولت أن ترجع موقفها بهدوء. وبدا واضحاً أن الأبواب كانت موصدة، لكن قد يكون أحدها ما مفتوحاً. عليها أن تتحرى الأمر. سارت عبر الشرفة وحاولت ما أمكن أن ترى إذا كانت الأبواب مفتوحة، لكنها كانت مقفلة جميعاً.

... عبرت إلى الناحية الأخرى، عابرة الشرفة ثانية ... إلى الأبواب الأخرى. ولكن أيضاً كانت مقفلة وضغطت أنفها على الزجاج محاولة أن ترى الداخل. وعرفت أن الغرفة كانت مكتب برانت، وكادت أن تستدير وتبتعد يائسة عندما أمسكت يد قوية بذراعها. أجفلت من الخوف وأدت تخيلاتها السابقة بها إلى حالة من الفزع الهستيري وانفلتت بعنف ولكن الصوت كان هادئاً وطبيعياً.

فرفعت وارتخت كتفاها ونظرت إلى وجه توم الكئيب الذي بدا عليه النوم.

همست وهي ترتجف:

- أنا... أنا لقد حسبتك في الخارج.

- حسبتك في الخارج؟

هز رأسه من دون أن يفهم ثم شعر ببرودة تتسلل عبر معطفها إلى حيث قبض على ذراعها، ثم قال بعنف:

- ماذا تفعلين أنك تفعلين خارج المنزل في مثل هذا الوقت من الليل؟

كان واضحاً أن سؤاله لا موجب له وسحبها معه وهو يخاطبها عبر الشرفة والباب المشبك. وتوقف لحظة كي يغلقه ثانية، ثم سار يخطو ثلاث عبر القاعة المظلمة وإلى الردهة. وأغلق الباب وراءه وتركها وذهب ليشعل مصباحاً، ثم استدار يواجهها وقد اكتسى محيا الوسيم تعبير متجهم وسألها:

- حسناً؟ ماذا كنت تفعلين؟

لمست صوفي أطراف ردائها. وتمنت لو أنه يتوقف عن النظر إليها بتلك الطريقة المحتقرة وكأنها شيء غير مستساغ وجده على عتبة منزله. تنهدت بعمق وقالت:

- نزلت إلى الرصيف. لم أستطع النوم ورغبت في السير. وعندما... عندما عدت كان الباب مقفلاً ولا بد أنك أنت حبستني خارجاً.

- ولماذا أنا؟

- لماذا لا... في الواقع، حيث أنك الشخص الوحيد المستيقظ فلا بد أن تكون أنت.

- أوه حقاً؟

- في أي حال، كيف علمت أن الشخص الذي كان في الخارج هو أنا؟

رفع آدم كتفيه ثم أرخاهما بحركة عفوية:

- لم أعلم. ولكن عندما يسمع أحد شخصاً ما يحاول فتح جميع الأبواب والنوافذ يستنتج أن ذلك الشخص يحاول الدخول. إنك لا تصلحين لمهمات سرية. فأنت تحدثين الكثير من الجلبة

- أوه، شكراً لك لأنك أدخلتني المنزل. أعتقد أنه من الأفضل أن أذهب إلى غرفتي وأنام الآن.

- إنك ترتعدين من البرد. وأنت في حاجة إلى ما يدفئك وإلا ستصابين بالنزلة الصدرية.

- أوه، لا. حقاً سأكون على ما يرام عندما أنام.

- ولكني أصر.

أحضر لها شراباً وراقبها وهي ترشفه. كانت تضع يداً على ياقة ردائها

وتمسك بالكأس باليد الأخرى. وشعرت بضعف مفاجئ، وتمنت لو أنه يذهب ويعود لنفسه كأساً. لو يفعل شيئاً ما عوضاً عن الوقوف أمامها. جاء صوته ليقطع حبل تفكيرها:

- هل تشعرين بتحسن الآن؟

- أوه... أجل، شكراً لك، إني آسفة لأني أزعجتك.

ضاقت عينا آدم:

- يجب أن تخبري الناس عندما تنوين الخروج للتنزه في منتصف الليل. ربما لم أكن هنا لأدعك تدخلين، أو كان من المحتمل أن تتعرضي لحادث.

- ماذا تعني؟

- أن تلك الدرجات قد تكون خطرة خصوصاً في الليل. كان من الممكن أن تقعي أو تلوي كاحلك. وعندها ماذا كنت تفعلين؟

- لا أدري. وناولته كأس شرابها قائلة، لا أريد المزيد شكراً.

- أنهي الكأس!

- كلا. أنا... أنا لا أحب كثيراً.

- ليس القصد أن تحبي طعمه فهذا دواء. وأنت تعلمين ماذا يقولون عن الأدوية.

أخذت صوفي نفساً مرتعشاً وقالت:

- لا أستطيع أن أشرب المزيد منه.

نظر آدم إليها بامعان، وركز بصره على وجهها وشفتيها. وقال لها:

- أخبريني أليس هناك شاب متشوق إلى عودتك إلى لندن؟

خطت صوفي خطوة إلى الوراء وقالت:

- أنا، لا أعتقد أن هذا من شأنك.

عبر آدم المسافة التي فصلت بينهما بتأنٍ ورفع قائلاً:

- ولكني مهتم

قال لها ذلك وعيناه الجميلتان تلمعان بشكل مثير. خطت صوفي خطوة أخرى إلى الوراء وتطرت حولها بيأس كي تضع الكأس في مكان ما. واعترضت:

- إنه من السخف أن نتحدث عن هذا الأمر في الساعة الأولى بعد منتصف الليل.

- لقد أجبتِ على سؤالي.

حدقت صوفي مرة أخرى إلى الوراء واصطدمت بطفلة قريبة من الباب، وقالت ترجوه:

- أرجوك توقف عن إيذائي، واسمح لي أن أذهب للنوم!

- إنك لا تحاولين إبعادي.

توقف آدم أمامها ولم يكن يفصل بينهما إلا بضع سنتمترات وشغل ذلك يده وجذب خصلة من شعرها بقوة.

- أريد أن أعلم الحزن والذي ألمّ وأقفت على اللقاء منذ ثلاثة أسابيع أخرى وأريد أن أعلم السبب.

حاولت صوفي أن تهدئ نفسها المتسارع.

- حسناً، حسناً، يجب أن تعرف لماذا سأمضي. لقد أخبرتك، وترددت وبرزت وأحست الآلفة منه.

خفض آدم نظره، وبدا انتباهه مركزاً على أصابعها التي أمسكت بعض ردائها. علّق بصوت أجش:

- لاحظ أن اسمي مشوه بسبب غيابه عن مجموعة الناس الذين نحن.

ارتعشت صوفي:

- أنا لم أعتقد بأنك تأبه للأمر.

وحاولت أن تبدو غير مهتمة ثم تابعت:

- يبدو أن هناك أناساً يشعرون بأكثر من مجرد ميل نحوك.

فتح عينيه قليلاً ونظر إليها باهتمام:

- وكيف تعلمين ذلك؟ قد أكون غير محبوب إلى درجة ملحوظة.

- أشكّ في ذلك. ونظرت صوفي بعيداً عنه. أوه أرجوك، دعني أذهب.

قطّب آدم فمها وعلت وجهه انفعالات الانزعاج:

- أنت لا تتعبين كمتواطئة، أليس كذلك، يا إلهي؟

نظرت إليه بسرعة:

- لا أدري ماذا تقصد.

- لا تدرين، وشعرت بالخوف فطمأنها قائلاً: استرخي، لن أؤذيك.

- دعني... دعني أذهب.

- وإذا لم أدعك، ماذا تفعلين؟ تصرخين للنجدة؟

- أرجوك.

وصلت صوفي إلى درجة أصبحت معها مستعدة لأن ترجوه.

- أنا متعبة. وأريد أن أنام.

عندها اقترب ... وشعرت بانقباض أنفاسها وعجبت كيف أنها لا تزال متماسكة الذهن.

- قلت لك. لن لا أؤذيك.

- أدع...

هزّت صوتها ونظر إلى عينيها وشعرت به يجذبها نحوه وأرادت أن تقاوم لكنها لم تستطع. وفجأة تكسرت الكأس التي كانت لا تزال في يدها وهوت على الأرض وتيقظت والتقطت أنفاسها، وحاولت أن تفلت منه لكنها لم تتمكن وما أن تراجعت حتى وضع يديه خلف ظهره وأزاح ذراعيها عنه محاولاً إبعادها عنه قائلاً:

- لا، يا إلهي، لا.

وهزّها بعنف وأفلتت وجذبها عجلاً وبأصابع مرتجفة لمست أطراف ردائها:

- الوقت تأخر قليلاً لتفعل هذا، أليس كذلك؟

سألها آدم بفظاظة واستدار بعيداً وظهر عليه الاحتقار.

- يا إلهي. فقط اغربي عن وجهي يا صوفي!

لبرهة لم تستطع صوفي أن تدرك ما قاله لكن آخر كلمة قالها جعلتها تفهم.

- صوفي؟!

قالت وهي تكاد تختنق:

- أنت... أنت تعلم اسمي؟

ابتعد آدم عنها واستند بجسمه إلى الطاولة وبدا بارداً ومتجهماً.

- عرفت اسمك منذ وصولك الى هنا، قال بتجهم. والآن، اخرجي من هنا قبل أن أفعل ما قد تندمين عليه.

لم تستطع صوفي أن تستوعب الأمر فوراً. فقد حدثت أمور عدة في وقت قصير جداً لم تتمكن معه من فهم ما يجري تماماً. حركت رأسها ببطء من جهة الى اخرى، محاولة فهم ما يعني لها كل الذي حصل لكنها اتسعت عيناها عندما نظرت ناحية آدم ورأت الكراهية العارية تلتهب فيهما.

- اوه... آدم...

بدأت تخاطبه بنعومة لكنه نهرها بلهجته الصارمة.

- لا أريد التحدث اليك أبداً. قال وهو يمسح فمه بظاهر يده. فقط اذهبي واتركيني وحدي!

أدار ظهره، وسارت صوفي مترنحة نحو الباب ثم توقفت. كان رأسها يضج بصخب وشعرت بالغثيان لكنها لم تستطع ان تصدق أنّ آدم لم يعد يشعر بشيء نحوها. واستاءت من نفسها بسبب ما حصل وهمست قائلة:

- آدم أرجوك، دعني أفسر الأمر.

- اخرجي!

كان صوته مشبعاً بالقرف فخرجت وهي ترتطم بالأثاث وصعدت السلم الى غرفتها بصمت قطعته شهقات باكية في داخلها.

كان امراً مدهشاً أن يكون الصباح مشرقاً دافئاً مهما جرى الليل من امور. وبالنسبة الى صوفي، التي أيقظتها الخادمة ليزا، كان بريق الصباح أشبه بتحية ساخرة لها في حزنها. وانسلت تنهض من السرير الواسع وطرفت عيناها بعدم تصديق وهي تنظر الى الساعة على الطاولة الصغيرة الجانبية. عشرة! لا يمكن أن يكون الوقت متأخراً الى هذه الدرجة!

حملت الخادمة صينية وعليها كوب من القهوة وبعض السندويشات الساخنة، وخاطبتها بلهجة جدية:

- الآنسة فيوليت قالت انك تحتاجين الى هذا.

كانت صوفي متأكدة أنّ الخادمة لم تنظر لها أبداً عندما جعلت فيوليت تؤنبها.

- اوه، حسناً، شكراً لك.

واعتدلت صوفي في السرير وأزاحت بعض الأشياء الموضوعة على الطاولة الجانبية كي تتمكن ليزا من وضع الصينية عليها.

- سوف أنهض فوراً.

هزّت ليزا كتفيها:

- هذا كل شيء؟

قالت صوفي متنهدة:

- نعم، شكراً.

هزّت ليزا كتفيها ثانية وغادرت الغرفة وبعد خروجها غرقت صوفي في السرير، وأحنت رأسها باستنكار وانسدل شعرها كستار كثيف على وجهها. ثم وضعت رأسها بين يديها وتنهدت بعمق، وتساءلت عما اذا اعتبر آدم بقاءها في السرير عملاً متعمداً لتجنب الحضور. بالطبع، لا بد أن يفكر هكذا. لم يكن يعلم أنها بقيت مستيقظة لساعات طوال وهي تشعر بالتعاسة والغثيان. تناولت بعدها ست حبات اسبرين كي تغفو.

لم تمس السندويشات لكنها رحّبت بالقهوة. كان فمها جافاً وبعد رشفات قليلة منها نهضت وذهبت الى الحمام لتنظيف أسنانها. لم يكن شكلها مريحاً للنظر في المرآة وبدت عيناها سوداوين قاتمتين لشدة ما بكت وكان خداها شاحبين هزيلين.

استمتعت بالماء البارد وتمنّت أن ينعشها الحمام. وبالفعل، شعرت بتحسن حالما خرجت، لكنّ شعوراً بالفراغ داخلها بقي على حاله.

ارتدت سروالاً ورديّ اللون وسترة زرقاء وسرّحت شعرها بحركات سريعة يائسة وقالت لنفسها أنها لن تكون كالفأرة التي تختبئ في الزاوية بانتظار ضربة القط. ستخرج وتلاقي الحدث بكل ما لديها من شجاعة، وتري آدم أنها لم تكن جبانة لا تأبه للنتيجة.

عندما نزلت الى الطابق الأرضي صادفت بيرز والتقت أعينهما الشديدة التشابه بينه وبين والده. سلّم عليها بمكر:

- مرحباً. هذا افضل وقت للاستيقاظ. انتظرتك منذ ساعات.

بدا الغرض في عيني صوفي:

- انتظرتني؟ لماذا؟

نظر بيرز نحو السماء باستياء ظاهر:

- لماذا؟ تسأليني لماذا؟ ألا نذهب عادة للسباحة في الصباح؟ أعلم أنني ذهبت بعيداً لمدة يومين، لكن هذا لا يعني أن الأحوال تغيّرت فجأة.

- أوه! نسيت.

- نسيت؟ كيف يمكنك أن تنسي موعداً مهماً كهذا؟

وتظاهر بيرز بأنه تألم:

- إذن ما الذي تنتظرينه؟ ألا تريدين أن تسبحي؟

ترددت صوفي متفكرة بعصبية أن يسمع آدم أو براندت حديثهما ويظهرا وأخيراً قالت:

- أنا... لا أشعر بميل للسباحة اليوم

تقدم بيرز نحوها، وتفحص، وتفحص ملامحها عن كثب وسألها باهتمام:

- قولي لي، هل أنت على ما يرام، تبدين شاحبة، هل كنت في ساعة متأخرة ليلة أمس؟

- يمكنك أن تقول ذلك لي... لم أنم جيداً.

- أستطيع أن أرى ذلك، أومأ بيرز رأسه، تعالي دعينا نذهب ونجلس على الشرفة وسأخبرك عن رحلتنا.

بحثت صوفي عن تردّدها:

- أين براندت ووالدك؟

نظر بيرز إليها بلطف:

- لماذا؟ ما حاجتك إليهم؟ أليست رفقتي كافية؟

- أوه بيرز، طبعاً لكن... يبدو البيت ساكناً هذا كل شيء.

هزّ بيرز كتفيه.

- لقد ذهبا إلى بورت ماغوير. أراد براندت أن يأخذك معه لكنك كنت نائمة، وقال إنك ستجدين الرحلة مضجرة في أي حال.

شعرت صوفي بالضعف وارتاحت:

- أين بورت ماغوير؟

- في الجهة الجنوبية من الجزيرة قرب حقول النفط.

تأوّلت فجأة وأمسك بيرز معصمها كي يسندها:

- إنك متوعكة فعلاً، أليس كذلك؟ تعالي، سترتاحين اليوم. سأطلب من جوليت أن تجلب لنا بعض القهوة إلى الشرفة.

ولكن صوفي قاومت بإصرار. من الواضح أن آدم لم يقل شيئاً بعد، ولكن إلى متى يمكنها أن تتوقع استمرار هذه الظروف؟ كان عليها أن تفكر في طريقة واعية وعاقلة، وكلما أسرعت في إرسال البرقية إلى إيف وإبلاغها عما يحصل كان أفضل لها. جلست صوفي مع بيرز وتناولت بعض قطع البسكويت وشربت فنجاناً من القهوة وبدأت تستعيد حيويتها. وفكرت أن الأمور ما زالت كما كانت ظاهرياً. قال آدم إنه علم بهويتها الحقيقية منذ البداية. لهذا فإن وضعها في المنزل لم يكن أسوأ مما عليه سابقاً. علماً بأنه لم تستبعد أن ينفضح أمرها في أي لحظة...

واستغربت كيف علم آدم أنها لم تكن إيف منذ البداية. فكّرت في الأمر ملياً، وكان السبب في عدم قدرتها على النوم الليلة السابقة جزئياً، وعاودها الشعور البالي ثانية وهي تفكر بهذه الأمور. شربت بعضاً من قهوتها وتعمدت التفكير بأمور أخرى. ونظرت إلى بيرز وقالت:

- أتعتقد أنه يمكننا الذهاب إلى بورت أوف سباين اليوم؟

- أتعتقدين أنها فكرة حسنة وأنت تشعرين بتوعك؟

تكلّفت صوفي الابتسام:

- أوه. أشعر أنني على ما يرام الآن. أعتقد أنني تعرضت لحرارة الشمس أكثر مما ينبغي يوم أمس. هذا كل شيء.

بدا بيرز متشككاً:

- ولكن ماذا تريدين من بورت أوف سباين؟ أستطيع أن أرسل جوزيف.

تنهدت صوفي:

- لا، أفضل أن أذهب بنفسي ثم إني لم أر المكان بما فيه الكفاية.

واعتقدت أنه يمكنها التجول قليلاً.

- وتريدين أن تتسوقي؟

- أريد أن أرسل برقية.

- برقية؟ رفع بيرز حاجبيه، الى شخص اعرفه؟
- كلا، الى صديق في الوطن برقية معايدة. تعلم هذه الأمور.
قررت أن تعترف بأنها سترسل برقية لأنها ستحتاج اليه في الاهتداء الى المكان.
أنهى بيرز تناول قهوته ووضع الفنجان جانباً.
- اذن متى تودين الذهاب؟
- ساعة تشاء.
- الآن؟
- سيكون ذلك رائعاً!
- حسنا واذا شعرت بنفسك مرهقة، اخبريني؟
- أجل شكراً يا بيرز انك رائع!
- هل أنا حقاً رائع؟ لقد كنا لا نتجاوز أبداً مرحلة امساك الايدي، نحن أقارب كما تعلمين.
أضحكها ما قاله بيرز.
- اعتقد أنه من الأفضل أن احضر نظارتي.
ذهبا الى بورت أوف سباين وقاد بيرز السيارة بمهارة وعندما فسّر لها أن والده علّمه قيادة السيارة على أراضي العائلة وهو في الثامنة من عمره فهمت صوفي سبب مهارته.
- هل. . . هل تذكر والدتك؟
سألته بتردد، غير قادرة أن تنسى أدع بصورة تامة.
نظر بيرز اليها نظرة جانبية.
- هل تعلمين أنها المرة الأولى التي تسألينني فيها عن والدتي؟
- لم انتبه في الواقع، ما وجدت أن ابدو دخيلة.
- ولم لا؟ فهي كانت عمتك.
- أجل، حسناً. . . لا علاقة لي بالأمر، أليس كذلك؟
- اوه أجل. اني اذكرها. اعتقد اني كنت في السابعة من عمري عندما توفيت. لكنها لن تكون كل شيء في حياتي. اعتقد أن فيوليت كانت والدة لي اكثر منها.

- لأن انت عشت هنا دائماً؟
- في براتي سانت فينسنتي؟ أوه، أجل. اسمعي. كان والدي يعمل لحساب براتلت والبيت ضخم. ولم يكن براتلت يحب ان يبقى وحيداً.
- كانت معه روزا.
- أجل، لكنك تعرفت الى روزا. انها لا تعيش معنا معظم الوقت، وبالتأكيد لاحظت ذلك.
أومأت صوفي برأسها:
- اعتقد. . . اعتقد أن والدك تضايق جداً عندما توفيت.
بدا بيرز مفكراً:
- اعتقد أنه كان كذلك الى حدٍّ ما.
وقطبت صوفي حاجبيها:
- ماذا تعني؟
- في الواقع لم تكن أمي مثله. لا اعلم بالفعل لماذا تزوجها، ثم انتبه وتابع، أجل، أعلم. أخبرته أنها حامل وفعل ما أملاه عليه ضميره!
- اوه! استدارت صوفي في مقعدها وقلبها يخفق بقوة، لكن اعتقد أنه كان سعيداً بولادتك؟
- نوعاً ما. لكنني ولدت بعد سنة من زواجهما لذا لم تكن الأمور تجري على ما يرام.
هتفت صوفي:
- تعني. . .
- نعم القدم حيلة وقع فيها. ماذا كان في وسعه أن يفعل. عائلة سانت فينسنتي عائلة مرموقة ولديها مبدأ في مسائل الشرف. كان من غير المعقول أن ينكر أبي مسؤوليته وان ساوره شك في عدم صحتها.
هزت صوفي رأسها:
- يا له من أمر فظيع!
- نعم ألم يكن هكذا؟ ولكن هكذا هي الحياة، كما يقولون.
لم تستطع صوفي أن تقف عند هذا الحد من الحديث:
- ولكن بعد ولادتك، بالتأكيد تحسنت الأمور؟

- ليس فعلاً. أرادت والدتي أن تتزوج، وعندما أصبح عليها تحمل مسؤولية الزوج والعائلة انطرحت في فراشها
- لا يمكن أن تكون جاداً. من أخبرك كل هذا؟
- لو تعتقدين أن والدي أخبرني القصة كما يرغب ويجعلني أكره والدتي؟ لم يكن في حاجة الى الكذب يا إيف. كنت موجوداً. رأيت الأمر يحدث
- ولكن لا يمكنك. كنت صغيراً جداً.
- في البداية، نعم.
لا أعتقد أنها شكلت بعد أن ولدتني. على الأقل ناسيها التظاهر بذلك. وكما ترين، فوالدتك توفيت عند ولادتك واعتقد أن كلاً من والدي وبرانت كتب عليها أن يكون زوج فعلها عاقلاً في كل الأحوال. لا أعتقد أنها كانت زوجة فعلية لوالدي. بالطبع أصيبت بالسرطان. قد أبدو قاسياً، لكني لست هكذا فعلاً. الأمر لا يبدو أنها لم تكن أماً حقيقية لي أيضاً. فما ما ذهبت اليها بنفسي الدامية أو رأسي المجروح كانت تتظاهر بالحيرة وتعتقد أن أذهب الى فيوليت التي كانت تطعمني. الناس يعتقدون أنّ روابط الدم هي كل شيء. أنا لا أعتقد ذلك. يمكن للناس أن يكونوا منهم من نوع واحد ويكرهون بعضهم بعضاً. فيوليت كانت أمي وهذا كل معنى الأمومة أليس كذلك؟
- أعتقد ذلك.

كان مكتب التلغراف يقع في ساحة الاستقلال التي سميت هكذا بعد الاستقلال في عام ١٩٦٦، كما أخبرها بيرز. وهناك عدد من الحدائق والساحات الجميلة تشرق الى السياح. لكنّ أمراً واحداً كان يشغل بال صوفي تلك اللحظة. لحسن حظها وافق بيرز على انتظارها في الخارج بينما دخلت هي وكتبت رسالتها الى إيف. بدت الرسالة طويلة جداً عندما انتهت من كتابتها، لكنها أرادت أن تعلم صديقتها بالورطة التي أوقعتها فيها. كان عليها أيضاً أن تبلغها ان عطفا علم بهويتها الحقيقية. وبعد ان دفعت رسم البرقية للموظف وخرجت، وجدت بيرز يرتقي بقدمه بنفاد صبر.

- يحق للسماء، ما هي رسائل العابثات هذه؟ هل تذكرين أني انتظرتك هنا منذ قرابة نصف ساعة؟
- إني آسفة يا بيرز ولكنك تعلم كيف تسير الأمور. أنا غير معتادة على إرسال برقيات.
حدّق بيرز فيها بدهاء:
- حقاً؟ واعتقد انك لم تذكري شيئاً عن علاقتك هنا لفترة أسبوعين آخرين، هل انا مخطئ؟
همست صوفي:
- انا قد أكون نسيت أن أقول لك ذلك.
أومأ بيرز برأسه
- اعتقدت ذلك. صديقك هذا الذي كتبت له انه رجل، أليس كذلك؟
تفرست صوفي فيه مستنكرة سؤاله وهمست ثانية. على الأقل انا أعلم الجميع أنها أرسلت برقية الى برنت أدج في شيء، الا انه غيره بيرز أنها موجّهة الى رجل. فهزّت كتفيها وقالت بحنق:
- انني أصدقاء من الجنسين ولا أعتقد أن الأمر يهم في كلا الحالين.
بدا الخجل على وجه بيرز:
- أعتقد أنك محقة. مللت من الانتظار، هذا كل ما في الأمر. تعالي، سنذهب نتغدى ثم أطوف بك في المدينة قليلاً.
تمكنت صوفي من نسيان همومها ذلك اليوم وقررت ألا تعيش عذاب القلق لأنها لن تستطيع فعل شيء، لتغيّر مجرى الأحداث. وبدلاً من ذلك استمتعت بالنزهة مع بيرز في واحدة من أجمل مدن العالم. لكن ما ان عادا الى السيارة حتى شعرت صوفي بموجة عارمة من الندم. كاد النهار ينتهي وعليها الآن أن تعود وتواجه أي طارئ يمكن أن يحصل.
وصلا الى سنت فينسنت قرابة الساعة السادسة مساء ورأت صوفي أنّ أدج وبرانت قد عادا أيضاً. كانت سيارة أدج متوقفة في باحة المنزل ونوافذها مفتوحة. علّق بيرز:
- لقد عاد والدي. تعالي! ربما وصلنا في الوقت المناسب لشرب الشاي،

أنا بالتأكيد أحتاج إلى ذلك.

تبعت صوفي بخطى بطيئة. تخوفت من اللحظة التي ستضطر فيها لمقابلة آدم ثانية ورؤية الكره القاسي في عينيه. تخوفت من رؤية الاحتقار يملأ وجهه، وتمنت لو أنها لم تذهب مساء أمس. ولو لم يحصل ما حصل...

دخلا القاعة. وانعشتها برودتها بعد الحرارة في الخارج، وملأت الجو رائحة الورود الموضوعة في مزهرية كبيرة على طاولة طويلة. توقفت صوفي معجبة بالورود. فعلت أي شيء، لتؤخر لحظة مواجهته القريبة. كانت منحنية على باقة الورود عندما جاء آدم. لم يكن وحده. بل هناك فتاة تتبعه وللحظة ظنت صوفي أنها جالين فنظرت بعيداً. لكنه تكلم وجعلها كالمشلولة تجمد في مكانها.

- آه، لقد عدت. أنا سعيد يا إيف فهناك زائر من انكلترا. أليس الأمر مدهشاً؟ الآنسة صوفي سلاتر!

ظنت صوفي أنها ستغيب عن الوعي حيث كانت تقف. شعرت بارتخاء في ساقيها وغشت عينيها غشاوة. لكن تقدمت منها وأمسكت ذراعها بنفاد صبر قائلة:

- لا تتأثري إلى هذا الحد يا عزيزتي! أعلم أنها مفاجأة، لكنك تعلمين كم أحب المفاجآت!

٨ - الحقيقة كالكابوس!

جلست صوفي على كرسي في الحمام وراقبت إيف وهي تستحم وتستخدم كل ما وضع بتصرف صوفي فقط. ملأت إيف حوض الحمام بفقاقيع الصابون واسترخت بكسل، غير آبهة لتعبير القلق المرتسم على وجه صديقتها. وقالت لها بهدوء:

- يا عزيزتي، الأمر الذي لا تفهمينه هو أن آدم لا يستطيع أن يفضحك الآن.

- لماذا؟

- يا عزيزتي، لو كان ينوي أن يفعل ذلك لكان في إمكانه أن يفعله قبل أسبوعين، ألا ترين؟ لقد جعل نفسه متورطاً في القضية.

- تجعلين الأمر يبدو بسيطاً جداً!

- في الواقع انه بسيط، اليس كذلك. انه وضع غريب، الا تعتقدين، انت تقلدين شخصيتي، وانا شخصيتك.
- انه وضع سخيف! ايف، عليك ان تخرجيني من هذه الورطة. اعيدي جعلك من انت وسأعود الى الوطن.
- كلا!
- لم لا؟
- سيكون مثل هذا التصرف غبياً الآن. من الواضح انه يمكن لك حياة حقيقية لتبدو لي كلامه عنك. ستكون الحقيقة بالنسبة اليه امراً قاسياً
استدارت صوفي نحوها بغضب:
- تعنين... لن يكون الأمر مناسباً؟
ضاقت عينا ايف:
- ما الذي تقصده؟
- سمعت ما قلت هناك اكثر من مجرد نهاية خواطر رحل مني. ارسلتني الى هذا المكان بهدف محدد لكنك لم تخبريني به!
تنهدت ايف وتناولت منشفة بيضاء:
- صوفي، لا تغضبي لأي سبب! تصورتك دائماً عاقلة ومتعقلة. فجأة يبدو لي ان اعصابك قد تلفت، واني اتساءل عن السبب؟
- اوه لا تكوني سمجة يا ايف! انظري، لقد فعلت ما اردت، جئت الى هذا المكان. الا تعتقدين انه يحق لي ان اعلم لماذا؟
- ربما، ربما لا. هل يمكنك اعارتي بعض الثياب النظيفة يا عزيزتي؟ اغراضي ما زالت في الفندق. الى ان يحضر جوزف حقيبتي.
شدت صوفي قبضتيها:
- لا يمكنك البقاء هنا؟!
- لم لا؟ انه افضل من البقاء في فندق.
- لكن آدم يعلم... فقد لا بد ان يدرك من انت.
- وان يكن؟ ان الأمر يضفي شيئاً من التشويق على الوضع، الا تعتقدين؟
تنهدت صوفي:

- لكن ماذا عن جون فيلوز؟ اعتقدت انك تعملين في الشرق الأوسط الآن.
خلعت ايف المنشفة عنها وسألتها:
- اين الثياب يا عزيزتي؟ لا استطيع ان اقف هكذا الى الأبد.
تأففت صوفي لكنها استدارت وذهبت الى غرفة نومها وفتشت في ادراجها واحضرت ما طلبته منها ايف. ثم قالت لها وهي ترتدي ثيابها:
- الشرق الأوسط يا ايف؟ ماذا حدث لتلك الرحلة التي منعتك من المجيء الى هنا؟
ارتدت ايف ثوبها الأزرق الذي ارتدته ساعة انت لم استدارت قائلة:
- لم يكن هناك من رحلة الى الشرق الأوسط يا صوفي، ولكنها ستحصل... بمساعدتك.
- ماذا تعنين؟
- اوه يا صوفي، هل يجب ان افسر فوراً؟ الا تستطيع ان تجلس وتدخن سيكارة وتتحدث عما فعلته انت هنا؟ هذا قضية حالي. اظنك استمتعت باقامتك هنا. اليس كذلك؟ ويبرز يبدو رائعاً.
عادت صوفي الى الحمام لتفرغ الحوض وجاءت ايف ووقفت باسترخاء عند الباب المفتوح.
- لا تكوني هكذا يا عزيزتي. الا نستطيع ان نتحدث بمودة؟
ووقفت صوفي مكانها:
- كيف يمكنك ان تقفي هنا وتتوقعي مني ان اوافق على تصرفاتك؟ اعتقد انك تصرفت بصورة معيبة. اذا اردت ان تعرفي حقيقة شعوري.
هزت ايف كتفيها وقالت بجفاف:
- لقد وافقت على المجيء يا صوفي.
- اعلم ذلك وندمت على فعلي منذ ذلك الحين.
واتجهت صوفي الى غرفة النوم واضافت:
- انا لا اصلح للمؤامرات يا ايف. اذا لم تخبريني عما في الأمر فوراً، سأنزل واخبر براندت كل شيء؟ هل تفهمين؟ كل شيء!
نظرت ايف اليها بتمعن:

ـ لا اصدقك يا عزيزتي لكن اذا اصررت . . .

ـ اني مصرة.

ـ حسناً والآن، من اين ابدأ؟

ـ من البداية.

ـ اوه نعم. اي منذ وفاة والدي. حسناً، كما تعلمين كتبت الى جدي آنئذ وابلغته الامر وكما تعلمين كان عطوفاً جداً. تبادلنا الرسائل، واقترح علي ان آتي الى لويدداد وارتحت للامر.

ـ ماذا؟

ـ اكره ان اعترف بالامر لكنني احب جون فيلوز.

ـ تحبين جون فيلوز؟

ـ نعم، لم اعتقد يوماً ان اي رجل يمكن ان يثير اهتمامي الى هذا الحد لكني احب جون.

ـ اذن، اين المشكلة.

ردت ايف عليها:

ـ لمجرد اني قلت بأنني احب جون فيلوز فهذا لا يعني انه يبادلني الشعور. على العكس، اشك في ما اذا كان يشعر حتى بوجودي.

نظرت صوفي اليها باستغراب ذكي:

ـ بيه يا ايف. انت لست من نوع النساء اللواتي يبقين من دون ان يلاحظهن احد لمدة طويلة.

ـ شكراً لك يا صوفي، وابتسمت ايف ابتسامة صغيرة غامضة. سأعتبر كلامك بمثابة اطراء لي. لكن، على رغم ما تقولينه لم يصل جون فيلوز الى حيث هو اليوم من دون ان ينتبه للفرص التي اتاحت له ذلك فهو يعلم اين يريد ان يكون ويصل الى ما يريد. ان الصحافة مثيرة لكن من الممكن ان تكون خطرة جداً عندما يقوم الصحافي بمهمات ما وراء البحار. وهو يعلم اين يكمن المال في الصحافة والتلفزيون، وكيف يصبح المرء شخصية مهمة ويشتهر اسمه فوراً. ولهذا يريد ان ينجز السلسلة الوثائقية تلك.

ـ تعنين ان فكرة نقله الى الشرق الأوسط كانت فكرة المنتج؟

ـ بل ضرورية. على الأقل من وجهة نظر جون. الا ترين، اذا استطعت

تأمين المال فسوف يأخذني معه!

ـ اوه، يا ايف لست جادة في ما تقولينه!

ـ لم لا؟

ـ الآن . . . حتى لو كان الأمر صحيحاً، وكان فيلوز يحتاج الى المال واستطعت انت تأمين ذلك له، فهذا لا يعني بالضرورة انه سيهتم بك! يحق السماء، اعتقد ان العكس قد يحصل. قد يصبح مشهوراً، ويرد لك ما استدانه منك، ثم يتخلى عنك!

زمت ايف شفتيها بخجل:

ـ في الواقع، عقلك الساذج يستنتج هذا اليس كذلك؟ لا تتصوري اني سأعطيه النقود من دون اي ضمانات. انني لست بلهاء كما تعلمين.

هزت صوفي رأسها:

ـ وهذا كل ما في الأمر؟ فرصة لسلب رجل عجوز بضعة آلاف من الجنيهات؟

نظرت ايف اليها بتعجب:

ـ اني لا اسلب احداً. انه حقي. اني قريبة ابي الوحيدة. ويحق لي نصف الممتلكات هنا!

شهقت صوفي:

ـ انت نسيت ان امك تخلت عن كل شيء عندما تزوجت والدك. وحسب ما اعرف فالعمي هو الذي ورث كل شيء.

ـ تمتحونني؟ ولمعت عينا ايف. اخبريني، كيف اخبرك انه كان يعلم من انت؟

وبدت صوفي الآن غير مرتاحة:

ـ هل يهم؟ اخبرني وهذا يكفي.

ـ هل يكفي؟

امعنت ايف النظر فيها ولاحظت امتقاع وجهها الفاضح:

ـ آه افهم. بدأت افهم. انه طيق شهي، اليس كذلك؟ الخال أديج. وبما دام يفكر انه خالك فليس هناك من اهتمام . . .

ـ لم يكن في الأمر شيء من هذا! لقد اخبرتك. انه علم منذ البداية.

- كيف؟

- لست ادري. واستدارت صوفي بعيداً. ارجوك يا ايف، توقفي عن معاودة القاء اللوم علي.

- انا لا الومك. كنت فعلت الشيء ذاته لو اني مكانك. اخبريني كيف هو؟ اعني آدم.

شهقت صوفي. ونظرت اليها قائلة:

- من العار عليك ان تقولي مثل هذا الكلام!

- ماذا؟ اوه يا صوفي انك [illegible] كثيراً. من الواضح انه يحبك. ولكن هل تحبينه انت؟

- ايف، ارجوك! انا لا نتحدث في اموري. انا نتحدث في موضوعك انت... ووضعك هنا. اسمعي، يمكنك ان تخبريهم ما يحلو لك. يمكنك ان تدعي انك جئت بمهمة عاجلة من الجريدة... اي شيء، ما دام يمكنني العودة.

- ابداً.

- ولكن ماذا يا ايف؟ كنت صبورة جداً. وقد كذبت من اجلك. تظاهرت بأن [illegible] تظاهرت بأنه رجل سيئ [illegible] الاسباب الحقيقية لذلك. كيف تتوقعين ان تبقي هنا الآن؟

وقفت ايف:

- اذا ذهبت الآن سيتحطم كل شيء. الا تستطيعين ادراك ذلك؟ لن يسامحني جدي ابداً ان علم اني ارسلتك لتحلي محلي.

- وهل تعتقدين فعلاً بأن آدم سيسمح له بأن يعطيك المال وهو يعلم انك اتيت هنا بنفسك؟

- قد يفعل. اذا كانت الشروط ملائمة.

- اي شروط؟

- حسناً. هناك قضية عدم افصاحك كمحتالة منذ البداية. اتعتقدين ان لهذا الأمر اهمية شخصية؟

- عم تتكلمين؟

- اي التكلم عنك وقح. اتعتقدين انه يستهويك؟

حبست صوفي انفاسها:

- لا! لا. طبعاً لا.

- انه احتمال.

- لا اظنك تعتقدين ان آدم لم يخبر والدمس الحق، لانه وجدني جذابة! يا ايف، لا تكوني سخيفة الى هذا الحد!

- اين السخف في ما قلته؟ ما السبب اذن في عدم كشف هويتك؟

- هو - لم يعطني اي سبب.

- هكذا اذن.

- اوه، يا ايف! فقط لو تعلمين كم انت مخطئة في ما تعتقدين. الا تستهويه. انه يكره ان يرى. قد اخبرني بذلك.

- حقاً.

بدت ايف محتارة. ثم تابعت:

- غريب، والغريب. في الواقع لا بد ان يكون لديه سبب ما لعدم كشف هويتك، وعلينا معرفته واستخدامه لمصلحتنا.

نظرت صوفي اليها بحيرة:

- يمكنك الا تفعلي ما يحلو لك يا ايف بشرط علم الجميع في الوضع!

- هذا؟ اتريدين ان يعلم جدي الحقيقة من دون تحضير؟ ماذا تظنين سيكون رد فعله؟ سوف يصدم.

تحركت صوفي بعصبية:

- لا بد ان يعرف عاجلاً ام آجلاً.

- ماذا لم لا تتبع خطتنا الاساسية؟

- خطتك انت!

- حسناً خطتي انا. لو تتوقفين فقط عن التصرف بهذه الرتابة لوجدت ان لا شيء تغير. يمكن ان يسير كل شيء كالسابق ولكنني الآن سوف اساعدك.

- لا. لا. لن افعل ذلك.

- ماذا ستفعلين اذن؟ تكشفين نفسك؟ وانا لا ارى ان افعل ذلك

واعتقد ان آدم لن يفعل ايضاً لسبب ما

انطلقت صوفي تسير في الغرفة:

- يا الهي. ما هذا الوضع! لم خطرت ببالها فكرة. لكن اذا كنت لا ترغبين السفر مع جون فيلون، لماذا ارسلتني الى هنا؟ ولماذا انت هنا الآن؟

- كنا انصرفت يا عزيزتي. لم استسغ فكرة لعب دور الحفيدة المفقودة. حتى الآن لا ارغب في ذلك. انت اقرب الى طراز الحفيدة التي يتوقعها جدي.

- انت لا تهتمين اية تفاصيل، اليس كذلك؟ كيف تجسرين على تحريك الناس كي يخدموا اغراضك وتتوقعين ان لا تتضرري؟

- اوه حقاً يا صوفي، لا تكوني طفلة! ما الأمر المريع الذي اقترفته، في اي حال لقد استمتعت جدي كثيراً. اكثر مما كنت استمتعته انا بالتأكيد.

- وتعتقدين ان هذا عذر مقبول؟ جعلت جدك سعيداً بسبب اكاذيبك! هناك امور اخرى يجب ان تأخذيها في الاعتبار يا ايف.

- كان لي امكاني ان اعلم ان ضميرك البورجوازي سيبدأ بازعاجك.

- يبدأ؟ لم يتوقف ابداً عن ازعاجي!

- أتعنين انك لم تستمتعي في الاقامة هنا؟ اي انك لم تتمني عدم العودة الى الوطن؟

كان على صوفي ان تكون صادقة:

- كلا. انا لم اقل ذلك.

ولكن فجأة، قبل ان تستطيع ايف الاجابة، سمعتا طرقاً قوياً على الباب خارج غرفة نوم صوفي، واستدارت الفتاتان تحدقان في الباب من دون فهم. وطرق قلب صوفي بقوة، لكنها تحركت لتفتحه ثم تراجعت مرتبكة عندما دخلت الخادمة فيوليت الى الغرفة.

- اني آسفة يا آنسة ايف، خاطبت صوفي بلهجة اعتذارية، ولكني امسكت بتلك الفتاة ليزا تتجسس على بابك.

استندت صوفي نفسها الى مقبض الباب:

- ليزا؟

- نعم. ارسلتها الى هنا قبل عشر دقائق لتخبر صديقتك الآنسة سلاتر

ان غرفتها جاهزة وتنتظرها. وطبعاً عندما لم تعد، اتيت لأرى ما الذي يحدث فرأيتها واقفة خلف الباب تتجسس!

تركت صوفي الباب وجلست بضعف على السرير.

- فهمت. . . فهمت.

نظرت ناحية ايف فتحركت الفتاة بسرعة الى الأمام وهتفت:

- كوني اكيدة من انها ستعاقب بقسوة، وتعجبت صوفي من برودة لهجة ايف، لا يمكن للمرء ان يسمح لمثل هذه الامور بأن تحصل. هل حصل مثل هذا الأمر قبلاً؟

استجابت فيوليت فوراً للهجة الآمرة في صوت ايف.

- ليس على حد علمي يا آنسة سلاتر. ولكن لا تقلقي. سوف اخبر السيد بركليت عنها. انها فتاة وقحة وربما كان من الأفضل ان تبحث عن عمل في مكان آخر.

تنفست ايف بسهولة اكثر:

- اعتقد انها فكرة ممتازة يا فيوليت، وابتسمت، ففي اي حال، يجب ان تفكري براحة ضيوفك، اليس كذلك؟ وهذا ينعكس عليك.

اومأت فيوليت برأسها قائلة:

- اتركي الأمر لي يا آنسة.

- حسناً.

انحنت ايف والتقطت حقيبتها ونظرت نحو صوفي نظرة ثاقبة، ثم خاطبت فيوليت:

- والآن خذيني الى غرفتي، فأنا متعبة. هل تعتقدين انه في امكاني تناول عشائي في غرفتي هذه الأمسية؟ انا متأكدة ان الآنسة ايف يمكنها ان تعتذر نيابة عني.

خرجت ايف قبل ان يكون لدى صوفي الوقت الكافي لتعترض وسمعت فيوليت تؤكد لايف ان المسألة سهلة. ولكن ما ان اغلق الباب خلفهما حتى دفنت صوفي رأسها بين ذراعيها، وارتجفت لا ارادياً. لا بأس ان تتصرف ايف بمثل هذا الهدوء. لكنها لم تعلم هنا ولم تكن تعرف هؤلاء الناس.

اخرت صوفي موعد نزولها الى العشاء حتى اللحظة الأخيرة، وظهرت في

اللحظة التي جاءت فيها الخادمة لتخبر براندت أن العشاء جاهز. كان جميع أفراد العائلة يتناولون العشاء في المنزل هذه الأمسية. وبدا براندت متضايقاً بعض الشيء، عندما أبلغته صوفي أن صديقتها متعبة ولن تتناول طعام العشاء معهم وسألها عابساً:

- هل هي مريضة؟ بدت متعافية ساعة وصلت.

هزت صوفي رأسها نفياً، متجنبة نظرة آدم المتهكمة:

- لا. إنها ليست مريضة، فقط متعبة. تعلم كيف هي الأمور كالسفر من انكلترا وما إليه.

- أوه لكنها أخبرتنا أنها هنا منذ بضعة أيام وأنها قررت أن تبحث عنك بصورة عرضية. حتى آدم فكر وهم يجلسون إلى طاولة العشاء.

تجهم وجه صوفي:

- أوه، حقاً. أعتقد أنها أمضت كثيراً في الجزيرة قبل أن تأتي إلى هنا.

حدق براندت في ابنه:

- لا أذكر أن الآنسة سلاتر ذكرت موعد وصولها إلى ترينيداد.

هز آدم كتفيه:

- ألم تذكر؟ ربما أخطأت.

ألقت صوفي نظرة غاضبة نحوه:

- الجميع يخطئ، أحياناً.

- نعم، أنت تخطئين، أليس كذلك؟ قال بنبرة قاسية، ولكن البعض يخطئ، أكثر من البعض الآخر.

قطب براندت حاجبيه في وجه ابنه وقال لصوفي بلطف:

- لا تكترثي لما يقوله آدم يا عزيزتي. أخشى أنه يكون مزاجه سيئاً اليوم.

- لست في حاجة للاعتذار عني يا براندت!

- فعلاً؟

ونظر براندت في وجه صوفي القلق:

- أخشى أن جولتنا في بورت ماتورين لم يكن ناجحاً تماماً. أصيب أحد انابيب الضخ بعطل في منطقة ارتوستا وأمضى آدم معظم الوقت يزحف

فوق الآلات. كما أن عجلة السيارة ثقبت في طريق العودة. من حسن حظك أنك لم تكوني معنا يا إيف. فلم أود لك سماع ما تلفظ به من كلمات.

استطاعت صوفي أن تبتسم:

- أخبرني بيرز في بورت أوف سباين.

- نعم، هذا ما سمعته، نظر براندت إلى حفيده، إنك هادئ جداً هذا المساء. ما الخطب؟

- ماذا؟ أوه كنت أفكر، هذا كل شيء.

نظرت صوفي نحوه بسرعة. هل علم بيرز بالأمر؟ هل قرر آدم كشف هوية صوفي الحقيقية لابنه بعد أن جاءت إيف؟ فإيف هي قريبة بيرز وابنة أخت آدم.

التقط بيرز نظرتها اللطيفة وابتسم لها وسألها:

- كيف تشعرين الآن؟

ثم خاطب الجميع:

- كانت إيف متوعكة بعض الشيء هذا الصباح. لم أرد ذهابها للتنزه لكنها أصرت.

سألها براندت باهتمام:

- عفواً شعرت؟ طبعاً، قلت إنك مصابة بصداع مساء أمس عندما اقترحت عليك الذهاب مع آدم وحالتي.

- لم يكن صداعاً مزمناً. أعتقد أني تعرضت لأشعة الشمس أكثر مما ينبغي.

- هذا قد يكون خطراً. عليك أن تكوني أكثر حرصاً. لا نريدك أن تمرضي فتتخلفي عن حضور الكرنفال الأسبوع المقبل.

- هل حان موعد الكرنفال؟

سألت روزا وهزت رأسها ببعض التعجب.

- كيف تمر السنوات!

أشعر كأن والدتك كانت تحضر نفسها للكرنفال يوم أمس.

- نعم، لكن هذا كله من الماضي.

علق براندت بتشاؤف. بدت روزا كأنها لم تسمعه اذ تابعت حديثها:
- ذلك كان الوقت الذي عرفت فيه والدتك. أو تعلمين، وقت الكرنفال، لم يقطعها أحد. لساعات طويلة.
- كفى يا روزا!
كان صوت براندت قاسياً وبدا كأنه ايقظ اخته من احلامها. فنظرت اليه في صمت مؤلم وصمت الجميع لفترة.
عندما انتهت وجبة الطعام، كانت صوفي تهم بالصعود الى غرفتها عندما عرضها آدم:
- أود التحدث معك يا ايف!
خاطبها ببرود وهما يغادران الطاولة:
- ستذهب في نزهة في سيارتي.
نظرت صوفي اليه بشرود:
- افضل الا اذهب. شكراً لك.
- لكنك ستفعلين.
همست كي لا يسمعها احد غيره:
- لا تستطيع ان ترغمني.
- أوتظنين ذلك؟
كان صوته هامساً وشعرت بالعنف الذي يكتنفه. واقترب براندت منهما:
- ما الذي يجري؟ ما الذي تقوله لايف الآن يا آدم؟ الا تستطيع ان ترى كم هي متعبة؟ دعها وشأنها!
وضع آدم يديه في جيبي سرواله، واجابه ببرود:
- كنت فقط اقترح عليها استنشاق بعض هواء الليل البارد فهذا سيخفف من صداعها.
- صداعها؟ مرة اخرى يا ايف؟ يا للحظ التعيس.
طوت صوفي ذراعيها في حركة دفاعية وقالت بارتباك:
- افضل ان اخلد الى النوم، شكراً لك في اي حال.
- ولكن ذهابك الى النوم ليلة امس لم يشفك، أليس كذلك؟

- ماذا تقصد!
وللحظة مزعجة ظنت صوفي انه ينوي فضحها. ولكن بدا واضحاً ان آدم كان يفكر بسبل اخرى لتعذيبها. لكنه اجابها بلطف:
- حسناً، تشكين من الصداع وربما هواء الليل سيكون انجع من النوم.
اومأ براندت برأسه موافقاً:
- ما دمت لا تتشاجر معها طوال الوقت يا آدم فلا بأس. خذها الى الجبال فالهواء ابرد هناك.
لم يكن في وسعها الا ان توافق. احضرت صوفي شالاً وضعته على كتفيها ثم رافقت آدم الى السيارة. وقادها نحو الجبال فعلاً كما اقترح براندت عليهما. في ظروف مغايرة، كانت صوفي تمتعت جداً في النزهة. فضوء القمر الفضي لوناً فضياً على البحر الذي قبع مئات الامتار تحتهما، وغطت الاشجار الطريق الملتوية التي سلكاها. كان الطقس اشد برودة هنا وارتعدت بتأثير البرد المشوب بالخوف. بقي آدم صامتاً في الطريق وكان مركزاً على قيادة السيارة عبر المسالك الضيقة، ويسترخي وراء المقود. اخيراً وصلا الى هضبة صغيرة تطل على منظر جميل وكان ضوء القمر ينعكس نوره على المزيد من المناظر حولها. اطفأ آدم محرك السيارة وفتح بابه وخرج وسار بكسل نحو سور حجري واسند ذراعه اليه. رأت صوفي شعلة قداحته وهو يشعل سيكارة وبقيت مكانها، متجمدة وعصبية، غير قادرة على تفسير سبب مجيئه بها الى هذا المكان. كان الصمت مثيراً للاعصاب وتمنت لو عاد الى السيارة واخبرها بما اراد قوله لها. كان من غير المجدي التظاهر بأن ما حدث بينهما ليلة امس لا يعدو اكثر من مجرد ازعاج له، ومهما حدث يجب الا تدعه يرى كم يستطيع ايذاءها بسهولة.
واخيراً عاد نحو السيارة وانسل في مقعده قربها باسترخاء طبيعي. ثم اضاء نور السيارة الداخلي وتمعن في ملامحها الشاحبة وسألها:
- حسناً؟ متى ستغادرين؟
- متى تغادر؟ لم افهم!
- فهمت جيداً. متى تزمعين على الرحيل؟
اطبقت صوفي يداً على يد باحكام:

- انا لا اعلم. ولا استطيع اجبارها على المغادرة.
- طبعاً صاح آدم بغضب، اتوقعين مني فعلاً ان احتمل وجود تلك المخلوقة في منزلي يوماً آخر؟
- انت... انت تعلم من تكون؟
- عليك اللعنة، طبعاً اعلم! انها ابنة جيمس هولبيستر! بكل ما للكلمة من معنى!
- لماذا... ماذا تقصد؟
زمجر آدم بغضب:
- كان جيمس هولبيستر مقامراً بلا اخلاق. تزوج امي على امل ان يضع يده على ما تملكه ثروة كبيرة. ولسوء الحظ ظن انه يستطيع ذلك من دون الرجوع الى والدي، وعندما انعزلت جينيفر عن العائلة ولم يكن معها فلس واحد، اصيب باكبر صدمة في حياته العملية.
شهقت صوفي:
- لا اصدقك!
- ليس عليك ان تصدقيني. الأمر سيان لدي. ولكن، هذه هي الحقيقة.
صمتت صوفي للحظة، ثم بدأت تفتح:
- جيمس هولبيستر احب جينيفر.
- احب مالها، لو ما ظن انه سيؤول اليها! يا الهي لا اظنك تعتقدين انني اتكلم من دون اثبات. عندما اكتشفت جينيفر الحقيقة، اصيبت بخيبة امل فظيعة وكنت اتمنى لو اخبرني كم هو خسيس. وماتت عندما ولدت ايف، لكنني اعتقد انها فقدت رغبة الحياة!
- اوه... لا يمكنك ان تعني ما تقول.
- بل اعني ما اقول.
- اذن لماذا لم تنفصل عنه، ولم تعد الى المنزل؟
اطفأ آدم سيكارته بعصبية في المنفضة:
- لأن ابي لم يسمح لها. ماذا تعتقدين كان سبب كل المشكلة؟ الا تدركين ان شعور ابي المعطوف تجاهك... للشخص الذي يعتبره انه انت

ينبع من شعوره بالذنب تجاه جينيفر؟ جينيفر ادركت مخاطر عملها لكن كلاهما لام الآخر. اعتذرت ان تتحامل التحذير وانت ترين ما حدث! ربما لو لم تمت خلال ولادة ايف لحدث صلح ما، ولكن هذا لم يحدث. على رغم كل شيء، فان والدي يستطيع عادة التمييز بين الاشخاص. عرف من هو جيمس هولبيستر منذ البداية، ولكن جينيفر لم تقتنع.
- اوه، يا الهي!
- انت تصدقين، أليس كذلك؟
- اظن لو لم افعل.
- لماذا؟ لأن الأمر يجعل موقفك اسوأ؟
- لا لا. انت لن تصدق ما اقوله، ولكنني لم ارغب في المجيء الى هنا.
- اوه، فعلاً؟
- نعم، واظن لو انني لم افعل.
- اذن لماذا اتيت؟
- هل تصدقني اذا قلت لك.
- اشك في ذلك...
- اذن...
- لكن، افهم لماذا ارسلتك ايف الى هنا.
انسحبت عينا صوفي:
- لماذا؟
نظر آدم الى اصابعه على مقود السيارة وقال:
- لأسباب واضحة. علمت انك الفتاة التي سيحبها والدي. ناعمة الطبع، ثرثرة، بعكس ايف القاسية.
احنت صوفي رأسها، لم تستطع ان تقبل كلياً ما قاله عن ايف. كانت لطيفة معها في الماضي، وساعدتها في الحصول على عمل في سانت تشيرش، لذا طالبت برد جميل فهذا لا يعني انها سيئة الى ذلك الحد.
- اذن ما الذي سيحدث الآن؟ نظرت اليه مستفسرة، مستغفرة، على ما اظن!

- هل ستغادر؟
صحح أدج ما قالته بتجهم
- لا أستطيع البقاء هنا...
- لم لا؟
هزت صوفي رأسها بيأس:
- ليس هناك سبب...
- فعلاً؟ وماذا عن إيف؟
تحركت صوفي مكانها بارتباك:
- اذا ذهبت إيف... على ان اذهب انا ايضاً.
- لماذا؟ لانها ستتوقع ذلك منك؟ لأن خطتها الصغيرة لم تنجح؟
- اي خطة؟
- لا تتظاهري بأنك لا تعلمين. وافقت إيف على المجيء، فقط لأن الشيخ يلاحقها.
شدت إيف خصلة من شعرها:
- هل يجب ان نتابع هذا الحديث؟ من الواضح انك تعلم كل شيء. الا يمكننا ترك الأمور على ما هي عليه؟ ستغادر إيف انه لا جدوى...
- لا.
قال لها أدج بلهجة آمرة باردة:
- ستغادر إيف وانت ستبقين.
- شهقت صوفي.
- ولكن لماذا؟
- لأنني لا أريد لوالدي ان يتضايق. لا بد انك تساءلت كيف سمحت لك بالبقاء هنا مع اني علمت انك محتالة. هناك اسباب عدة، واحدها يهمك، وهو أهمها. مع ان والدي يبدو في صحة ممتازة، الا انه منذ عامين وهو يعاني من مرض في القلب واصيب بنوبة طرحته مريضاً لشهور عدة. والآن نعلق بفضل الأدوية ومن شأن اي صدمة... في الواقع الأفضل تجنيبه مثل هذه الصدمة.
- لم اكن اعلم ذلك.

- كيف لك ان تعلمي؟ ولكني اخشى اكثر فان إيف لم تكن تعلم ايضاً.
تنهدت صوفي تنهيدة ارتياح:
- وانت تريدني ان ابقى هنا والتظاهر بانني إيف الى حين موعد مغادرتي؟
- نعم. هل اسأل الكثير؟
لم يكن طلبه كثيراً لكنها شكت في ان إيف سترى الامر بالطريقة نفسها او في انها ستغادر المكان من دون مشكلة ما. ثم سألته بارتباك:
- الا يمكنني ان اتظاهر بانني مضطرة للذهاب الى لندن للقيام بمهمة صحافية؟ عندها يمكنني ان اغادر انا وإيف معاً.
انتظرت اجابته في انقباض. سألت ذلك السؤال بعدما فكرت في انها قد تكون الطريقة الوحيدة لاقناع إيف بالمغادرة من دون ازعاج جلبها. ولان من الافضل لها ان تغادر وهي تدرك ان لقاءهما سيزول مشاعرها نحو أدج.
لم تكن مهيأة لرد فعل أدج على اقتراحها. ضاقت عيناه وبان الغضب فيهما واستدار في مقعده وامسكها باحكام من كتفيها واصابعه تغرز فيها وتكلم بغضب:
- ايتها الانانية! اليس لديك الاخلاق الكافية كي تنهي ما بدأته؟
- انت لا تفهم...
- لا تقولي هذا! ما الخطب؟ هل انت خائفة من البقاء هنا، هل هذا ما في الأمر؟ هل تخافين من ان انتهز الفرصة لاستفيد من عرضك؟
- عرض؟ اي عرض؟
- هذا!
صاح فيها وشدها نحوه وعانقها:
- أدج! أدج لا تفعل هذا!
- لماذا، واستمر... قائلاً: لم يكن رد فعلك مماثلاً ليلة امس...
حاولت صوفي ابعاده عنها لكن من دون جدوى ثم فكرت... ولكن أدج لا يحبها! لم يبين لها مدى احتقاره لها. هل تريد ان يحتقرها اكثر. ابعدته عنها ونظرت اليه وقالت:
- اعدني الى المنزل!
كان تعبير أدج محيراً لكنها اعتقدت انها رأت نظرة احتقار في عينيه.

تحرك واستند بنفسه إلى الباب. لم يقل شيئاً. فقط نظر إليها. وتحركت صوفي تحت وطأة نظره وكأنها عينة تحت ميكروسكوب. ثم استدار نحو مقود السيارة ببطء، وخاطبها:

ـ يمكنك أن تخبري إيف بأنها إن لم تغادر ترينيداد غداً مساء فسأجعل الشرطة تلقي القبض عليها كمنتحلة شخصية مزيفة!

٩ ـ ضائعة وسط الجميع!

ـ إنه يعني ما يقوله يا إيف، حتماً!

تكلمت صوفي بيأس، بينما إيف بقيت مستلقية في الفراش تدخن سيكارة، وبدت غير مكترثة بما كانت صوفي تقوله. كان الوقت صباح اليوم التالي عندما جاءت صوفي لتتحدث إلى إيف بعد أن رفضت الأخيرة التحدث إليها في الليلة السابقة.

ـ يا عزيزتي، بدأت تزعجينني. ما لا تستطيعين فهمه، ولكنّ لويس متورط في هذه القضية إلى العنق، ألا تفهمين ذلك؟ لا يستطيع أن يطردني أو أن يفضحني! من دون أن يخلق الوضع ذاته الذي يخشى أن يتجنبه!

ـ لا تقلقين.. إيف لن تفعل.

ـ لن أفعل ماذا؟! أخبر عندي أنك لست حقيقية في نهاية المطاف.

سأفعل إذا اضطررت.

- أوه، إيف!

- لكنني لن أفعل، قالت إيف وتنهدت. ألا ترين يا صوفي؟ لا يمكن لأدج أن يدع هذا يحصل. ليس الآن.

استدارت صوفي بعيداً بتعب.

- لذا ما الذي ستفعلينه؟

- سأتحدث مع نغل المحترم، أجابت إيف بهدوء، وأفسّر له مضايقي ومصاعبي. إني متأكدة بأننا سنصل إلى تسوية ما.

- إيف، هذا ابتزاز!

- لا تبالغي في كل شيء، يا صوفي! سيتفهّم وضعي لذا. دعيني أتصرف.

- لكنني لا أريد أن أكون جزءاً من كل هذا.

- أنت أخبرتني بنفسك أنه يتوقع منك أن تبقي. بعد أسبوعين ينتهي كل شيء.

- لست أدري!

رغبت صوفي لو أنّ لها هذه الثقة.

انقضى الصباح بصورة طبيعية. أراد بيرز أن يسبح ومع أن صوفي وافقت على الذهاب معه، إلا أنها لم تسبح. فقد كان تفكيرها مرتبكاً إلى درجة لم تستطع معه أن تتمتع وتسترخي. وبعد أن سبح بيرز بعض الوقت، عاد وجلس بالقرب منها على الصخور. وسألها:

- ما الخطب؟ تبدين قلقة.

- فعلاً؟ ولا أدري لماذا.

- إنها صديقتك، هي السبب أليس كذلك؟ لقد أزعجتك.

تنهدت صوفي:

- يا للسماء، لماذا تظن ذلك؟

هز بيرز كتفيه:

- لست أدري مجرد حدس، على ما أعتقد. ظهرت بصورة غير متوقعة وإقامتها هنا، أعلم أن براندت أصرّ على استقبالها، لكن يبدو أنها قبلت

الإقامة هنا.

أحنت صوفي رأسها:

- أظن ونعم.

- كلا، أنا لا أظن. ولديها قداحتك أيضاً.

نظرت صوفي إليه:

- قداحتي؟

- نعم. القداحة التي تستعملها عليها الأحرف الأولى من اسمك.

- أوه. نعم.

بلعت صوفي ريقها بصعوبة:

- عندما أقلعت عن التدخين أعطيتها إياها.

- أوه!

بدا متشككاً، وتذكرت صوفي كم بدا منهمكاً على العشاء في الليلة الماضية. وتساءلت لما كان أدج قد أخبره، حقيقة الأمور. لكن لم يكن هناك سبب لذلك. كان بيرز يشك في الأمر في أي حال، ولأن الأسباب أخرى. أم كي تزداد الأمور تعقيداً؟

في البيت لم تر إيف أو أدج، وارتدت صوفي ثوبها بسرعة لتناول الغداء متوقعة أن تعلم ما حدث. لكن أحداً لم يجبها عندما قرعت باب غرفة إيف ففتحت الباب وأطلت برأسها. كانت الغرفة مهجورة. لم تكن إيف هناك. وبينما تجيل النظر غير مصدقة في أنحاء الغرفة تنبهت إلى أن حقيبة إيف لم تكن موجودة ولا ملابسها. فتحت باب الغرفة على مصراعيه ودخلت الغرفة وأدركت أن عدوتها هنا ما يبررها. اختفت كل أغراض إيف من الغرفة. لم يكن أحد يشغل الغرفة. احتاجت إلى بضع دقائق لتستوعب حقيقة أن إيف غادرت فجأة كما جاءت. ولكن إلى أين ذهبت ولماذا لم تخبرها قبلاً. جلست على السرير بضعف وحاولت أن تستجمع أفكارها. علمت إيف بمشاعر صوفي بالنسبة إلى إقامتها هنا. لكن لا يمكن لها أن تغادر من دون أي إشارة! ربما تركت رسالة، تفسر فيها تصرفاتها، لكنها لم تجد شيئاً هنا. كذلك لم تجد شيئاً في غرفتها أيضاً. نزلت إلى غرفة الطعام وهي تشعر بالوهن والضعف. ما الذي يجري؟ رأت فوراً أن أدج لم يكن

يتناول طعام الغداء في المنزل. رأت براندت وبيرز وروزا فقط في انتظارها على الشرفة وابتسمت معتذرة قبل أن تجلس. فهي لم ترد لبراندت أن يشك في أي شيء. . . ليس الآن. كانت صامتة أثناء تناول الطعام. وأخيراً قال براندت:

ـ أشعر بالغيظ أن الآنسة سلاتر اضطرت الى مغادرتنا بهذه الصورة المفاجئة. أليس كذلك؟ لكن لا بأس، أعتقد أنك سررت بزيارتها القصيرة.

تبادلت صوفي وبيرز النظرات:

ـ انت تعلم أنها. . . غادرت؟

ـ طبعاً. أوج اخبرني قبل أن يأخذها الى المطار. كان من حسن حظها أنها استطاعت ايجاد مكان لها على الطائرة.

ـ هل. . . هل أخبرتك عن سبب اضطرارها المفاجىء الى الرحيل؟

ـ نعم، بسبب عملها. لكن يسعدني أن أعلم أنك لن تغادري يا ايف.

نظرت صوفي الى صحنها. لماذا ايف ذهبت كما قالت! لكن هل حصلت على ما أرادت؟ كانت صوفي أن تهز رأسها وهي تفكر. والا كيف وافقت على الرحيل من دون احداث جلبة؟ ولكن ما هو رأي أوج فيها. . . فيها؟

بقيت صوفي في غرفتها طوال فترة بعد الظهر. وكانت تظن بين الفينة والاخرى أن أوج قد عاد. لكنها تكتشف خطأها، بعد أن تطل من الشرفة. كانت أعصابها متشنجة ومتوترة، وخداها متوهجين، ولم تستطع التفكير إلا بما كان ينتظرها عندما يعود. استلقت على سريرها بقلق متخوفة من المجابهة القريبة. ويبدو أنها نامت لأنها استيقظت بعد فترة على صوت طرق الباب.

ـ آنسة ايف! آنسة ايف! هل أنت هنا؟

فتحت صوفي عينيها وهرولت تفتح الباب. وقفت فيوليت أمام الباب وبدت منزعجة جداً

ـ ما الخطب يا فيوليت؟ ما الامر؟

ـ هل. . . هل يمكنك أن تأتي فوراً، يا آنسة ايف. انه السيد براندت. وهو في مكتبه ولا أعتقد انه بخير أبداً.

نظرت صوفي الى الخادمة بهلع:

ـ ماذا تقصدين؟ ماذا حدث له؟ أين أوج؟ هل هو وحده؟

وفيما هما تهبطان السلم شرحت فيوليت الأمر:

ـ جوزف هو الذي اخبرني، يا آنسة. كان قد ذهب الى المدينة لاحضار بعض الاغراض ثم ذهب لرؤية السيد براندت اثر عودته. كان السيد بخير وقتئذ. تحدث الى جوزف. وسأله عن رحلته. ثم بعد ربع ساعة عاد جوزف ليسأله اذا كان يرغب في تناول بعض الشاي فوجده على طاولته، واغرورقت عينا فيوليت بالدمع وسألتها:

ـ سوف يكون بخير، أليس كذلك يا آنسة ايف؟

هزت صوفي رأسها يأساً. لم تعرف بماذا تفكر. هرعتا عبر القاعة ثم الى مكتب براندت. وكما وصفت فيوليت الحادث، كان براندت ملقى فوق مكتبه فيما كان جوزف يفرك يديه بقلق ظاهر. ترددت صوفي لحظة ثم سارت نحو المكتب ووضعت أصابعها على جبهة براندت. شعرت بالنبض لكنها هلعت عندما أحست بضعفه وحاولت محاولة الامساك بزمام الأمور:

ـ اطلبوا الطبيب، فيوليت، هل يمكنك الاتصال بطبيب؟

قفزت فيوليت من مكانها.

ـ نعم يا سيدتي. هل سيكون بخير يا آنسة ايف؟

فتحت صوفي فمها كي تحتج. . . لتقول انه ليس لديها ادنى فكرة عن الموضوع ثم أطبقته ثانية. كانت فيوليت وجوزف مثل الأطفال الذين يحتاجون الى طمأنينة. أرادا أن تقول لهما أن كل شيء سيكون على ما يرام حتى لو لم يكن الأمر هكذا.

ـ طبعاً، كل شيء سيكون على ما يرام، قالت صوفي بثبات، أعتقد انه غاب عن الوعي فقط. هذا كل ما في الأمر. افعل كما اقول لك واتصل بالطبيب. هل. . . هل عاد السيد أوج؟

ـ كلا، يا آنسة ايف.

أجابها جوزف، وأنبت صوفي نفسها لأنها سألت ذلك السؤال السخيف. لو كان أوج هنا، لأمسك هو بزمام الأمور. هرولت فيوليت بعيداً كي تتصل بالطبيب وقالت صوفي لجوزف:

- ساعدني في وضعه على الأريكة.

أومأ جوزف برأسه واستطاعا معاً نقل براندت الضخم إلى الأريكة ومدداه بشكل مريح. ثم جلست صوفي قرب براندت ووضعت وجهها على صدره. شعرت أن دقات قلبه أصبحت أقوى بقليل، لكنها لم تعلم إن كانت تتوهم الأمر أم لا.

وسألها جوزف:

- هل هناك ما أستطيع فعله يا آنسة إيف؟

نظرت صوفي إليه وقالت:

- لا، لا أعتقد ذلك. ما الذي حدث؟ قالت فيوليت إنك وجدته صريعاً عندما عدت من البلدة.

- هذا صحيح يا آنسة إيف. كانت الآنسة جانين معه.

اهتز رأس صوفي:

- جانين فليمنج؟

- نعم يا آنسة.

- وما الذي كانت تفعله هنا؟

هز جوزف رأسه:

- لست أدري يا آنسة.

- كلا، بالطبع لن تعرف.

فكرت صوفي في الأمر. ما يمكن جانين أن تفعله هنا بينما آدم غائب عن المنزل؟ مع أنها قد لا تكون مدركة أنه غائب. اضطرب عقلها من كثرة انشغالها. هل يعقل أن يكون لزيارة جانين علاقة بحال براندت؟ بدأت تتساءل إذا كانت جانين قد كشفت نيتها الحقيقية بطريقة ما وأثارها قلق شديد. ماذا لو أنها جاءت هنا لهذا السبب؟ ماذا لو أن معرفة براندت بحقيقة خطيبته كانت السبب في إصابته بالنوبة القلبية؟ هناك احتمالات عدة. ولم يستطع عقلها أن يستوعبها. كانت لا تزال جالسة قرب براندت عندما سمعت وقع أقدام تقترب ورأت آدم يدخل الغرفة. انتقلت نظراته من صوفي إلى الرجل ... ونهضت صوفي بارتباك عندما جاء آدم ليفحص والده. ولدهشتها رأته يضع يده في جيب والده ويخرج علبة دواء

وأمرها:

- احضري بعض الماء.

وركضت لتحضر كوباً. أجلس آدم والده قليلاً، ودفع بحبتي دواء إلى فمه ثم جعله يحتسي ليزيل ما علق بحلقه من ابتلاعهما. ثم سكب بعض الماء في فم براندت، ودهشت صوفي عندما رأت عينيه تطرفان. ثم سحبه آدم ثانية وسألها بقسوة:

- ما الذي حدث، ماذا قلت له؟

- أنا؟... أنا لم أقل شيئاً.

حدق آدم في وجهها للحظة ثم استدار نحو والده قائلاً:

- سمعت أنك طلبت الطبيب.

- أنا... أنا فكرت أن هذا أفضل ما يمكنني فعله. هل سيتعافى؟

- آمل في ذلك. لحسن الحظ وصلت في الوقت المناسب.

- أعلم أنك أخبرتني بأنه يتناول الدواء. لكني لم أكن أعلم أين الدواء... لم أكن أعلم ماذا أفعل!

- كان يمكن لزورا أن تعلم، هل سألها أحد؟

- لا أعتقد فقد جاءت فيوليت تطلبني.

- لا بد أنها فعلت!

ترددت صوفي ثم قالت:

- من الأفضل أن أذهب. هل ستخبرني بما يقوله الطبيب؟

- أريد أن أتكلم معك في ما بعد.

- نعم، حسناً... اعذرني.

كانت صوفي لا تزال في القاعة عندما ظهرت فيوليت:

- سيصل الطبيب بعد قليل، كيف أصبح الآن؟

- السيد آدم معه فيوليت. الآنسة فليمنج كانت هنا كما أخبرني جوزف. ما الذي كانت تريده؟

هزت فيوليت كتفيها:

- لم تخبرني يا آنسة إيف. فقط قالت إن لديها ما تقوله للسيد براندت. أعتقد أنها كانت توصل رسالة من والدتها عن لورا.

- ليزا، ردّدت صوفي من دون أن تدرك ما تردد. تقصدين الفتاة... الفتاة التي...

وفجأة لم تستطع أن تتابع الكلام. تذكرت ليلة أمس والمشاجرة التي دارت بينها وبين إيف. ليزا كانت واقفة خارج بابها تتصنت إلى الحديث...

- نعم، يا آنسة إيف تلك الفتاة التي كانت مصدر إزعاج هنا. يبدو أنها عرضت أن تعمل لحساب السيدة فليمنغ وقد قبلوا عرضها.

- هل فعلوا حقاً؟

شعرت صوفي بالوهن. وبدأت فجأة تتبين ما يجري ولم تحب ما أدركته. ما الذي سيفعله آدم عندما يعلم بالأمر؟ هل سيصدّق أنها لم تقل شيئاً؟ ماذا لو كانت جانين هي المسؤولة عن اخبار والده حقيقة الأمر؟ كانت فيوليت تنظر إليها ببعض الاستغراب الآن وسألتها باهتمام:

- هل أنت على ما يرام، يا آنسة [illegible]. لا تدعي الحديث الذي [illegible] يقلقك كثيراً. قال السيد آدم أنه لا داعي للقلق [illegible] سيلحق.

لكن آدم قال ذلك بالمنطق نفسه الذي قالته هي له. وهزت رأسها واستطاعت أن تطمئن فيوليت وسارت ببطء إلى القاعة الداخلية. ما الذي ستفعله؟ لقد أصيب براندت فعلاً بنوبة قلبية، لقد توفي... لكن لا، لا يمكن أن يحصل هذا، خاطبت نفسها بيأس. لا يمكن أن تكون طرفاً في مثل هذه المشكلة. عليه أن يتحسن، مهما علم عن الحقيقة. كيف لها أن تبقى هنا الآن لقد علم براندت بالحقيقة؟ قد لا يريد أن يراها ثانية. أما بالنسبة إلى آدم...

هزت رأسها ومسحت الدموع التي أخذت تنهمر. كان البكاء ردة فعل جباناً وضعيفاً. جاءت إلى هنا بإرادتها، ولم يجبرها أحد على المجيء، وكان عليها أن تواجه النتائج. ولكن الآن... وباندفاع مفاجئ، دخلت إلى القاعة وأمسكت بدليل الهاتف ووجدت رقم هاتف عائلة فليمنغ. اتصلت بالرقم ورفضت أن تفكر في ما كانت تفعله وعندما ردّت الخادمة طلبت التحدث إلى الآنسة جانين فليمنغ.

- الآنسة فليمنغ ليست في المنزل، أجابتها الخادمة بتهذيب. هل أنادي السيدة فليمنغ.

- أوه، كلا... كلا، لا بأس.

بدأت صوفي ترتاح عندما سمعت أصواتاً في الطرف الآخر من الهاتف ثم جاءها صوت جوارد فليمنغ.

- إيف، إيف، هل هذا أنت؟

أيقنت صوفي أن جوارد فليمنغ لم يكن يعلم بعد بشخصيتها الحقيقية فارتاحت بعض الشيء، وأجابته:

- نعم أردت التحدث إلى جانين. لكن لم يكن الأمر مهماً.

- ألا أنفع أنا عوضاً منها؟ تبدين منزعجة. هل وقع مكروه؟

- في الواقع، أجل. أصيب براندت بوعكة ونحن في انتظار الطبيب.

- يا إلهي! يبدو جوارد متأثراً فعلاً. هل في استطاعتي أن أفعل أي شيء؟

- كلا. شكراً لك. [illegible] أعتقد أن الطبيب يصل الآن.

وهكذا كان. ظهرت فيوليت التي قادته عبر السلم إلى مكتب براندت بينما تحركت صوفي في غرفة الصباح والشرفة وتساءلت عن مكان وجود بيرز. ربما ذهب في المركب الشراعي. تمنت لو كان هنا الآن. فهي كانت في حاجة إلى وجوده قربها.

ثم سمعت أصواتاً في القاعة وسارت نحو باب الغرفة لترى الطبيب يغادر. ودلّ قصر زيارته على أن الأمر ليس خطيراً، لكنها لم تتجاسر أن تؤكد استنتاجها. رافق آدم الطبيب إلى سيارته، وسارت صوفي نحو باب المكتب المفتوح. كان براندت لا يزال مستلقياً حيث وضعته هي وجوزف، وعيناه لا تزالان مغمضتين. لكن بدا أن تنفسه قد انتظم. كانت صوفي تهبط السلم عندما التقت آدم.

- إنه نائم الآن، وربما سينام بضع ساعات. لكن ليس هناك ما يقلق.

- أوه، الحمد لله.

كان تعبير آدم غامضاً:

- أقترح عليك أن تذهبي وتتناولي بعض الشاي. يبدو أنك بحاجة إلى

ذلك. سوف أكلمك في ما بعد.

أومأت صوفي برأسها وذهبت. على الأقل لن تموت براندت. وهذا أهم شيء في الموضوع.

كانت ترتدي ثياب العشاء عندما جاءت خادمة تخبرها بأنّ مكالمة هاتفية تنتظرها.

- لي أنا؟

فوجئت صوفي. من يمكن أن يتصل بها؟ تحدثت من القاعة، وحملت السماعة بأناة ووضعتها على أذنها بتردد.

- إيف هوليستر من المتحدث؟

- شخص يعلم أنك لست إيف هوليستر.

قال صوت نسائي. علمت صوفي فوراً أنه صوت جانين:

- فهمت أنك اتصلت بي في وقت سابق اليوم.

جلست صوفي حائرة على السلم. لقد فاجأتها كلمات جانين ولم يكن لديها ما تقوله.

- حسناً؟ كان عليك أن تعلمي أنّ أمرك سينكشف عاجلاً أم آجلاً.

- هل... أخبرت براندت؟

- ليس بعد. ولكني سأفعل إذا لم تغادري فوراً.

شعرت صوفي بنفسها مرتبكة.

- تريدين مني أن أغادر؟

- هذا صحيح. غداً إذا أمكنك. كان عليّ أن أعلم أنّ الطريقة التي كنت تنظرين فيها إلى آدم... ثم قطعت حديثها فجأة. في أي حال أنا أعلم الآن ولن أتردد في كشف حيلتك! لا أعلم لماذا جئت إلى تريندان. أو كيف حصلت على عنوان براندت، إلاّ إذا كانت ابنة جينيفر الحقيقية وراء كل ما يحصل. لكن من الأفضل لك أن توضّبي حقائبك من الآن وإلاّ سيكون لدى عائلة سانت فينسنتي أمور أخرى تشغل بالها.

أدركت صوفي أنّ الفتاة قد أقفلت الخط بعد حديثها. لقد هددتها ولم تشك صوفي في أنّ جانين عنت ما قالته. سوف تخبر براندت. فهي لم تكن تخاف خسارة أي شيء. جاءت مكالمة هاتفية أخرى وانتظرت صوفي عندما

نهض آدم ليجيب، لكنه بدا مشغول البال عندما عاد ولم يجلس ثم قال خاطباً عمته:

- يجب أن أخرج يا روزا! تعرّض بعض عمالنا لمشكلة في المدينة وعليّ أن أذهب. سوف أراك لاحقاً.

ولمعت عيناه وهو ينظر إلى صوفي وأدركت أنه كان ينبهها إلى أنها لن تنجو من الحديث المقبل معه. لكن لأي هدف؟ سألت نفسها بعد رحيله. لم يعد مهماً إذا طلب منها البقاء أو الرحيل. فجانين عنت ما قالته. كانت ستخبر براندت. وكان على صوفي أن تقرر إذا كان من الأسهل عليها أن تبقى أو تذهب.

عندما انتهت وجبة العشاء خرج بيرز، واندفعت صوفي خارج المنزل ونزلت السلم إلى الرصيف الحجري. كان الهواء قوياً في تلك الأمسية وتطاير شعرها على وجهها والشعر يديها. لكن على الأقل كان الهواء بارداً ومنعشاً وأزال غشاوة الهم والارتياب عنها.

كان الموج غير الاعتيادي يحمل المركب والقارب ويلطم واحدهما بالآخر، وسارت صوفي نحوهما ببطء وهي تراقب حركاتهما غافلة. لكنها تنبهت إلى أنّ الحبال التي تربط المركب بالمرساة كانت سائبة. فإما أنّ بيرز لم يربطها جيداً أو أنّ الريح هي السبب، لكن المؤكد أنّ المركب كان على وشك أن ينحرف إلى عرض البحر. نسيت صوفي همومها للحظة وانحنت كي تلتقط الحبل. وكانت الريح وموجة مفاجئة أن توقعاها لكنها تمكنت من استعادة توازنها وانحنت ثانية كي تربط الحبل لتكتشف أنّ حلقة المرساة قد تآكلت من الصدأ وهذا فسر كيف أفلت حبل المركب في الأساس. نظرت حولها وهي ممسكة بالحبل تحاول إيجاد مكان مناسب لربطه به لكنها لم توفق. كان أملها الوحيد في أن تربطه إلى مرسى القارب الثاني وأن تأمل في أن تتحمّل المرساة الاثنين معاً.

إلاّ أنّ يديها أصبحتا باردتين وأفلت الحبل فجأة من يدها بسبب الريح وتأرجح المركب كفلينة واختفى الحبل في الماء على بعد بضعة سنتيمترات في الرصيف.

- أوه. اللعنة!

حدقت صوفي في المركب الصغير بانزعاج. لو لم تنزل الى هنا لما كانت علمت بالأمر لكنها الآن لا تدري ماذا تفعل. بالكاد كان في امكانها ان تصرخ طلباً للنجدة في الوقت الذي كانت فيه قد فقدت طريقها. اذن ماذا في امكانها أن تفعل. تتركه وتأمل في ألا يجرفه الريح؟ أو تحاول ان تنقذه؟

نظرت الى ثوب نومها وقميصها وفكرت انها لو حاولت الامساك بالحبل ستتبلل ثيابها. ومن ناحية اخرى فان ثيابها الداخلية تمنعها الحركة [illegible]. خلعت ثيابها وقفزت في الماء. شعرت بلسعة البرد لكنها سرعان ما اعتادت عليها. كانت المياه لا تزال ادفأ بكثير من المياه في وطنها. واستطاعت ان تصل الى المركب، وامسكت بالحبل، ثم استدارت وحاولت ان تجذبه نحو الشاطئ، لكن لسوء الحظ عاكستها الرياح والمياه معاً. وشعرت بتعب فظيع، وبدأت تشعر بقساوة البرد وعلمت ان عليها التخلي عن مهمتها عاجلاً أم آجلاً ثم أصابها تشنج ووجع مؤلم في ساقها اليسرى جعلاها تشهق وتترك الحبل وتنزل تحت الماء للحظة. ثم تصعد من تحت الماء مذعورة وهي تحاول التقاط انفاسها، غير متمكنة من تصور طريقة للعودة الى الشاطئ. وعوضاً من ذلك، امسكت بجانب القارب وقفزت الى داخله وعومت على متنه. شعرت بارتياح عارم لخروجها من الماء ولشعورها بأنّ تشنج ساقها بدأ يخف. لكن ومع ذلك الاستراحة الاولى انتهت وبدأت تشعر بأحاسيس اخرى. شعرت ببرد شديد جعل اسنانها تصطك، وأخذ الشاطئ يبتعد عنها رويداً رويداً. وكفت وهي مذعورة وتساءلت عما يمكنها أن تفعل. حتى لو عرفت الطريقة لذلك فإنها شكّت في ما اذا كانت تقدر على رفع الشراع في مثل هذه الريح القوية، وقد تسحب الريح المركب الى عرض البحر.

علمت أنّ املها الوحيد هو في الغطس في الماء والسباحة نحو الشاطئ، فاذا ما بقيت حيث هي، فمن الممكن أن يحدث أي شيء هنا. قد ينقلب المركب وثم... صدمت فكرتها مرة اخرى ثم وقفت دون اعطاء نفسها المجال للتفكير ثانية في الامر وقفزت من المركب وسبحت في اتجاه الصخور. غطت المياه رأسها مرات عدة، وبصقت الماء مرات عدة من فمها لكنّها استمرّت في السباحة، لم تشعر بالصخور بعيدة الى هذا الحد في السابق.

واخيراً اقرّت لنفسها بأنها لن تستطيع الوصول اليها. وكان املها الوحيد في الوصول الى الرأس الصخري على بعد امتار عدّة منها. وبدا الرأس مرتفعاً ولم تر ما تتمسّك به كي تخرج من الماء، لكن لم يكن لديها أي خيار. واخيراً وصلت الى الرأس، وسحبت نفسها من الماء وهي تشعر بتلاشي قواها. وتزلق سطح الصخرة الخشن اصابعها وهي تحاول أن تنهض.

وجدت حافة عريضة على سطح الصخرة تكفي لتمدد جسمها فيها فألقت رأسها المتعب على الصخرة الخشنة. على الأقل كانت في مأمن في تلك اللحظة. لم تغمر المياه هذا الجزء من الرأس الصخري وفكرت انها ستحاول السباحة الى الشاطئ، ما ان تستجمع قواها. وشعرت بالبرد وبالتعب وبجروح خفيفة، لكنها نسيت متاعبها الاخرى في تلك اللحظة.

١٠ - الحنان الى الأبد

سمعت صوفي اصواتاً ملحة خافتة تناهت اليها عبر المياه كموجات، مثل ارتفاع الموج. . . رفعت نظرها وحاولت ان تتحرك. شعرت بكل عظمة في جسدها تؤلمها من شدة تعبها، رغم انها دافئة، وحاولت ان تبقى مستيقظة لكن البرد جعلها ترغب في اغلاق عينيها. كانت تعلم انه يجدر بها ان تحاول العودة الى الشاطىء، لكن المياه بدت مالحة وعدوانية واعترفت نفسها انها ستبقى لفترة اخرى. لكن الآن. . . الآن سمعت اصواتاً، يجب ان يراها احدهم لكن كيف لهم ان يستطيعوا؟ فقد خيمت الظلمة ولم يكن ثمة ضوء قمر، والضوء الشحيح لم يكن كافياً كي يرى شكلاً عند في مكانه واستلقى على الصخر، الا اذا استطاعت لفت انظارهم بوسيلة اخرى. استطاعت ان تتحرك ثم نظرت بيأس نحو الشاطىء. كانت لا تزال تسمع

الاصوات لكنها شعرت انها تبتعد، واذا لم تتصرف بسرعة فسوف تختفي.
- النجدة، صاحت بصوت خافت، ثم بصوت اقوى، اوه، ارجوكم ساعدوني!
حملت الريح صوتها بعيداً. ابتعدت الاصوات اكثر وجعلها الرعب تصرخ بشكل هستيري:
- النجدة، اوه يا الهي انا هنا! ساعدوني!
ساد الصمت للحظة وبدا كأن امراً غادرها قد تحقق، لكنها عادت تسمع الاصوات وعلمت انها تقترب نحوها
- صوفي! كان ذلك صوت آدم، صوفي هل تستطيعين ان تسمعيني؟
- نعم، اجابته وصوتها يضعف، الحمد لله انك سمعتني!
ثم بدأ صوتها اكثر واجهشت في بكاء عز كيانها
- اهدأي، انا مقبل لنجدتك!
صاح آدم، وسمعته يوجه اوامره الى من كان برفقته. سمعت صوت محرك قارب يقترب وصوت آدم يناديها في استمرار مشجعاً لكنها بالكاد ادركت اقترابه. فقد جعلتها الصدمة والبرد تفقد السيطرة على نفسها، وعندما اقترب القارب من الصخرة صاح آدم مرة اخرى:
- انا رميت حبلاً، هل في استطاعتك الامساك به؟
حاولت صوفي ان تبقي نفسها:
- سأحاول.
رمى آدم الحبل اليها. فانطرح قربها وكان من السهل عليها ان تلتقطه، لكن اصابعها كانت متجمدة الى درجة لم تتمكن معها من التقاطه وابتعد الحبل عنها. لم يسألها آدم مرة اخرى. وبدلاً من ذلك اقترب بالقارب ثم انحنى وقفز منه الى الصخرة ليقف على حذائها بالقرب منها.
- اوه، صوفي!
تمتم قائلاً ثم تابع بصوت مكسور:
- ظننت انك فقدت نفسك؟
نظرت صوفي اليه وهي ترتجف، وتحاول الوقوف على قدميها، ومن دون ان يكترث لتبللها قربها اليه واحتواها بذراعيه.

- يا الهي، قال وهو يتابع، انك ترتجفين من شدة البرد! تعالي! لن يطول بنا الأمر. الآن يجب ان اعيدك.

كانت صوفي مسرورة الا تبقى حيث هي بين ذراعي آدم. فهي تشعر بالانهيار في هذا المكان. لم تتذكر مشوار العودة الى الشاطئ، كثيراً. غطاها جوزيف الذي كان يرافق آدم بالأغطية بين قاع آدم المركب. ثم وصلوا الى الرصيف وحملها آدم نحو المنزل.

- آدم ... شكراً يا آدم، في استطاعتي المشي!

- اشك في ذلك.

ابتسم آدم عجباً، ثم تجاهل احتجاجاتها المتلاحقة. لاقتهم فيوليت الى مدخل المنزل، وبدا القلق واضحاً على وجهها:

- اوه يا سيد آدم لقد وجدتها! هل هي بخير؟

- ستصير كذلك. اذهبي وجهزي الحمام.

- نعم يا سيد آدم.

هرولت فيوليت صاعدة السلم ولحق بها آدم غير متزحزح من حمله. وتركها تقف عندما وصل بها الى غرفتها وقال لها باقتضاب:

- استحمي الآن! ابقي ما يطيب لك من الوقت في الماء، لا داعي للعجلة.

وما ان اصبحت صوفي في المياه الدافئة حتى سألت فيوليت عن الساعة.

- ألا تعلمين انها قاربت الثالثة بعد منتصف الليل!

- الثالثة؟ ولكن ... ولكن لماذا لا يزال الجميع مستيقظين؟

نظرت فيوليت اليها نظرة تقليدية.

- اوه يا آنسة يا له من سؤال! لقد فقد السيد آدم نصف رشده وهو يبحث عنك وأرسل السيد بيرز الى عائلة فليمنغ ليرى اذا ذهبت الى منزلهم مصادفة. وغطست صوفي في المياه الساخنة، وبدأت تشعر بالدفء مجدداً...

- ولكن ... متى افتقدني؟

- قرابة الحادية عشرة مساء، عندما عاد السيد آدم من المدينة. اراد ان يراك وعندما لم تجدك بدا مقتنعاً بأنك هربت.

رددت صوفي.

- هربت؟

- نعم يا آنسة صوفي ... هذا اصعقك؟

نهضت صوفي واقفة في الماء.

- كيف عرفت اسمي؟

- لم هذا السؤال! الجميع يعلم يا آنسة.

- الجميع؟ انقطع حديث صوفي، وبراندت ... اعني ... السيد براندت ايضاً؟

- الجميع.

قال صوت من الخارج، واستدارت صوفي لترى آدم مستنداً بكسل الى الباب. وفوراً عادت الى الجلوس في الحوض وغطست وجنتاها.

- يجب الا تكون هنا يا سيد آدم!

وبّخته فيوليت وهي تلملم ثياب صوفي وتضعها في سلة الغسيل.

- تستطيع ان تتحدث اليها في ما بعد.

- هذا ما سأفعله يا فيوليت، قال آدم بلهجة الواثق، ولكن استعجلي صبري بدأ ينفد.

ثم استدار وابتعد. انزلقا التفكير في ما سمعته، ولم تجسر على التفكير في ما قاله ولماذا لا يبدو غاضباً. ارتدت صوفي ثيابها وبعد ان اطمأنت فيوليت الى ان لديها كل ما تحتاجه غادرت الغرفة. كانت صوفي تجلس امام المرآة تسرح شعرها عندما فتح الباب وظهر آدم. دخل الغرفة بصورة مألوفة واغلق الباب خلفه، وبدأ قلبها يخفق بقوة. وضعت الفرشاة جانباً وراقبته يقترب منها في [illegible] ... كلمتها. ثم ابتعد عنها قليلاً وسحب علبة سكائر والشعل وابتعد. لاحظت ان يديه كانتا ترتعشان قليلاً وهو يشعل السيكارة. ثم سار مبتعداً عنها نحو الشرفة. وطرق قلبها مرة اخرى. ماذا سيحدث الآن؟ هل سيعود الى تصرفه المتهكم مرة اخرى؟ لكنها لم تر اي سخرية في وجهه عندما استدار نحوها. بل على العكس بدا تعبيره متوتراً وسألها بهدوء:

- اتشعرين بأنك على ما يرام؟

- انا... انا بخير. اني متأسفة لأني سببت المتاعب لكم.

- متاعب؟ ورفع عينيه نحو سقف الغرفة، اوه يا الهي، لو تعلمين اي متاعب!

- اني آسفة.

- لماذا؟ استحق اكثر من ذلك. يا الهي، عندما علمت انك مفقودة، فانا... ثم هز رأسه، حسناً، لا يهم الامر الآن، كيف وصلت الى هناك؟

- كنت احاول اعادة المركب الشراعي.

- المركب؟ وبدا فاقد التعبير. ابحرت بالمركب.

- كلا، لم ابحر به. الرسنة تآكلت من الصدأ وكان المركب غير مربوط، وحاولت استرجاعه

- فهمت. اذن لهذا السبب حدث لك. يا الهي عندما وجدتها ظننت فعلاً... ظننت...

واستدار فجأة وكأنه لم يقو على الاستمرار في الكلام وشعرت صوفي بدفق من العاطفة يسري في اوصالها. ولكن قبل ان تتمكن من قول اي شيء، تابع حديثه:

- اتعلمين، اكتشفت هذا المساء عندما استيقظ والدي انه كان يعلم انك لست ايف.

حدقت صوفي:

- وهل كان هذا سبب... سبب...

- تعنين سبب اغمائه؟ كلا، فقط نسي ان يتناول الدواء. هذا كل ما في الامر.

وشعرت صوفي بموجة ارتياح تغمرها.

- ولكن... لكن من اخبره. جانين قالت...

ثم صمتت عندما رأت عيني آدم تضيقان، لكنه حثها على متابعة الكلام.

- نعم، ماذا قالت جانين؟

- اوه... انه لا شيء.

- تعتقدين ان جانين اخبرته، اليس كذلك؟ هل هددت بان تفعل

ذلك؟

- ربما فعلت لا اذكر.

- في الواقع على رغم افعالها، فجانين لم تخبره.

- اذن... اذن كيف...

لم تتمكن صوفي ان تفهم. ونظر آدم بمرارة وقال:

- فتح برقية كانت موجهة اليك ظناً منه انها قد تكون مهمة. جلبها جوزف معه عندما عاد الى المدينة، وانت لم تكوني موجودة وهكذا... اعتقد انك انت التي ارسلت البرقية!

- البرقية!

حتى تلك اللحظة كانت صوفي قد نسيت امر البرقية التي ارسلتها، لقد وصلت ايف في اليوم نفسه الذي ارسلت فيه البرقية، نظرت بوهن الى آدم الذي تابع قائلاً:

- انت ارسلتها اليس كذلك؟ استطيع ان اقرأ ذلك من تعبير وجهك. شكراً للسماء انك فعلت ذلك!

ارتبكت صوفي وسألته هامسة:

- ولكن لماذا؟

- الا تدركين ان تلك البرقية ترفع اللوم عنك؟ قلت كلماتها بوضوح انك وافقت على المجيء الى هنا فقط لأنك اعتقدت ان ابراندت على وشك ان يموت وانك بالتالي متورطة في عملية الابتزاز.

فركت صوفي ذراعيها وسألته:

- ولكن كيف وصلت البرقية الى هنا؟

- بالسبل العادية. لم يكن من سبيل للاهتداء الى ايف في لندن. ومن الواضح انها ابلغت جيرانها انها ستغيب بعض الوقت. ولذلك اعيدت البرقية الى هنا.

- فهمت الآن.

قالت صوفي واومأت رأسها. ثم اضافت:

- ولكن كيف تأكد لك اني لم ارسلها كمسألة تغطية؟

نظر اليها آدم بنفاد صبر.

- هل فعلت؟
- كلا.
- لن اصدقك. انا اصدق حدسي. انت ببساطة لست ذلك النوع من الاشخاص. اعتقد اني علمت ذلك منذ البداية لكني احتجت الى ارغام نفسي على قبول الأمر. اني اسف.
هزت صوفي كتفيها في ارتباك:
- لا بأس.
لم تعلم كيف تتصرف حيال ما قاله. ففي السابق كان يبدو مكروباً. وربما كان يشعر بالذنب لانه عاملها باحتقار طوال تلك المدة. وبعدها شعر من انجذابه نحوها، فهو احتقر نفسه كل الوقت بسبب ذلك. ثم عاد ادم ليقول:
- قد يفاجئك ان تعلمي بان براندت كان قد بدأ يشك في انك ابنة جنيفر فعلاً.
التفتت صوفي باتجاهه:
- اصحيح هذا؟
- نعم، ان المرء يكون صورة عن الآخر عبر الرسائل. من الممكن ان يكون المرء صورة عن شخصية الآخر من كتاباته، ولأبي خبرة طويلة في التعامل مع الناس. وبدأ يدرك انك كنت تتجنبين مناقشته في الموضوع الذي كان يتوقع منك ان تناقشيه فيه. الدوافع وراء قبول ايف زيارته. ولكن كما ترين. . . واقترب ادم خطوة منها. . . بدأ والدي يحبك، يحب الشخص الذي هو انت، وكان خائفاً من التفتيش عن اجوبة قد تدمر العلاقة بينكما.
اسرعت خفقات قلب صوفي:
- لو كنت اعلم. . .
- لو علمنا جميعاً لكانت الأمور ابسط بكثير. ولكن، لو لم تستنبط ايف هذه اللعبة الماكرة لما كنا تلاقينا. اليس كذلك؟
- افترض ان هذه هي الحقيقة. لكن يجب ان اخبرك بوجود سبب آخر دفعني الى المجيء.

- سبب آخر!
- نعم، قالت صوفي بارتباك، هناك مدرسة لتمثيل هذا الصيف في روما وكانت ايف تعلم اني لا استطيع دفع نفقات الدراسة بمفردي، وهكذا عرضت ان تساعدني. . .
واختفى صوتها من شدة يأسها وتابعت:
- اعتقد ان هذا يجعلني سيئة مثلها. اليس كذلك؟
لم يقل آدم شيئاً، فاسرعت تتابع حديثها:
- والدك اخبرني انك اخذت ايف الى المطار هذا الصباح. . . اعني صباح امس.
- نعم، ولاذ تعبير آدم قليلاً، اعتقد انها اصبحت في لندن الآن.
- لكن كيف. . . اعني هل قبلت ان تغادر؟
- قبلت بنتيجة الأمر.
- تعني. . . تعني اعطيتها ما ارادت.
- بالطبع لا!
وعادت الكبرياء الى نبرات صوته ثانية.
- لا اعطي مالاً الى احد انا لم ارغب في ذلك.
- لكنها قالت. . .
- قالت الكثير، قال ادم مقاطعاً. بما فيه اخباري بانك وافقت على المجيء الى هنا كي تذهبي الى روما ولكنها حذفت قصة مدرسة التمثيل الصيفية واخبرتني قصة مختلفة عن رجل يملك امره ويعمل هناك. . .
- اوه هذا غير صحيح!
قالت صوفي وحدقت فيه بصمت:
- اوه بل هو كذلك.
- لكنها كانت صديقتي. . .
- بوجود اصدقاء مثلها لست في حاجة الى اعداء.
- لا، استوعبت صوفي ما قاله. اوه حسناً افترض ان هذا كل شيء. . . اعني، براندت يعلم الحقيقة، وايف ستدير امورها كما هي دائماً. وانا سأعود الى المسرح في ساندنشيرش. وإذا اتيت الى انكلترا، يجب ان تتصل

لي . . .

كان صوتها يخنقني واضطرت الى ان اشيح بوجهها وتنفست بعمق محاولة ان تهدأ. فلديها من الوقت ما يكفيها للبكاء عندما يغادر. كل الوقت الى الأبد.

سمعته يتحرك وشعرت بأنفاسه قريبا ثم قال لها:

ـ هذه المدرسة الصيفية، هل يهمك امرها كثيراً؟

تنهدت صوفي:

ـ كانت مجرد فكرة، هذا كل شيء.

ـ اذا كنت تودين الذهاب، سأمولك انا.

كان صوت آدم خافتاً وواضحاً في اذنها.

التفتت صوفي لتواجهه، واستدارت تنظر اليه باستغراب.

ـ لماذا . . . لماذا تفعل ذلك؟

ضاقت عينا آدم:

ـ اشعر بأنك امضيت فترة صعبة. واحاول ان افعل ما في وسعي لاصلح الامور.

احنت صوفي رأسها وهزته باصرار:

ـ لا، شكراً لك في اي حال. لا اعتقد ان الفكرة جيدة.

ـ لم لا؟ لن اربطك بشيء.

ـ انا متأكدة من ذلك لكني . . . لكني افضل الا آخذ اي شيء منك . . .

ـ لم لا؟

وامسك آدم بها من كتفيها وهزها قليلاً:

ـ يا الهي، اعلم انني تصرفت بسوء في الماضي، اعلم انني جرحت شعورك، لكني ظننت انك تكرهين عطفنا وكنت في كل مرة اكره المشاعر التي تثيرينها بي . . .

حدقت فيه صوفي:

ـ الا تعني الانجذاب؟

سألته بصوت مرتجف.

ـ حسناً، يحق لك قول ذلك ويحق لك ان تكرهيني. ولكن الا ترين انني احاول اصلاح الامور؟

احنت صوفي رأسها:

ـ لن يتوقع برانديت مني ان ابقى الى نهاية الشهر، اليس كذلك؟ اعتقد انه من الافضل لكلينا لو غادرت يوم غد . . . اعني اليوم، الا توافق؟

ـ لا! عليك اللعنة، لا اعتقد ان هذا سيكون الافضل على الاطلاق.

وارتجفت عضلة قرب فم آدم واخذت اصابعه التي امسكت بكتفيها تؤلمها. ادارت صوفي رأسها وقالت له:

ـ انني متعبة الآن. واود ان ارتاح. ارجوك!

ـ اوه صوفي . . . صوفي لا تكوني قاسية. لا اريد ان اتركك. اني احبك.

ـ آدم . . .

قالت بعدم ثبات، ثم عانقها وساد الصمت في الغرفة الدافئة المضيئة. واخيراً ابتعدت صوفي عنه قليلاً تنظر اليه واصابعها تداعب شعره:

ـ آدم؟ ماذا قلت؟

لاطف آدم عنقها وهمس وهو يجذبها اليه:

ـ سمعتني، واعتقد انك تعلمين بانني اعني ما اقول.

طرفت عينا صوفي:

ـ اذن لماذا تريد ان ترسلني بعيداً؟

تنهد آدم:

ـ لا اريد ان ابعدك. اشعر فقط ان علي ان افعل.

ـ ولكن . . . ولكن يجب ان تعلم بانني . . .

ـ تشعرين بانك مغرمة بي؟ نعم. علمت بالامر قبل الآن. لكنك صغيرة وقليلة الخبرة بينما انا . . . حسناً تعلمين نوع الحياة التي عشتها، كذلك سبق لي ان تزوجت.

ـ نعم، اخبرني جوز بالأمر.

ـ هل فعل؟ كان تعبير آدم كئيباً. اوه حسناً، اذن تعلمين كل شيء عني. لكن انت . . . حياتك كلها امامك. اذا ذهبت الى المدرسة الصيفية

فقد تبرعين وتصبحين مشهورة. من يعلم؟ بالتأكيد هذا ما يجب ان اساعدك فيه.

وعانقته صوفي:

ـ اوه، آدم، آدم، لا تدري كم اسعدتني! اما بالنسبة الى التمثيل... فهذا فقط للنساء العازبات.

ـ انك تفترضين بأنني اريد الاقتران بك.

علق آدم ببعض الشماتة، وتخضبت وجنتاها، لكنه هز رأسه بمكر واضاف قائلاً:

ـ وكأنما سأقبل بأقل من ذلك! لقد نلت مني يا حبيبي وعندما لا يوجد سبيل للشفاء على المرء ان يستمر في تناول الدواء!

لمعت عينا صوفي:

ـ يا هذا الدواء، اتسمح؟

واقتربت منه تعانقه اكثر ثم سألته همساً:

ـ وماذا بالنسبة الى بيرز، اتعتقد انه يمانع؟

دفن آدم وجهه في شعرها:

ـ لا اعتقد، فهو مولع بك. وبالتأكيد فزواجنا سيسعد والدي.

ـ فعلاً؟ بدت صوفي متأكدة، لم يكن يتوقع منك ان تتزوج ثانية.

ـ حتى هذا المساء.

علق آدم مبتسماً وتابع:

ـ اعتقد ان لديه فكرة جيدة كم تعنين بالنسبة الي، اكثر مما كان يتصور، وذلك عندما عصفت في هذا المكان بحثاً عنك، وهز رأسه، يا الهي عندما افكر فيك وانت على تلك الصخرة تحت رحمة الطبيعة...

ـ لا تفكر بذلك...

حضنته صوفي في نعومة وبدا ان آدم استسلم لهذا الحنان الذي ابتدأ الآن.

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 126

السهم المرتد

الصدفة تلعب دوراً هاماً في حياة الانسان. ايف صحفية لا تخلو من دهاء وخبث، طلبت خدمة من صديقتها صوفي، واعدة اياها بدفع المبالغ المترتبة لمدرسة التمثيل في حال قيامها برحلة بدلاً منها، لزيارة جدها الذي لا يعرفها...

صوفي قبلت العرض مرغمة، وسافرت الى ترينداد حيث التقت الجد، الذي ادهشها بحنانه وعطفه وطيبة قلبه. ولكن آدم وهو خال ايف كشف اللعبة من اول لحظة، وفاتح صوفي بالحقيقة واتهمها بانها لصة انتحلت شخصية ايف لتحتال على الجد وتحصل على مبلغ من المال وتهرب...

وامام الأمر الواقع، انهارت صوفي... هل يسلمها آدم للبوليس؟ هل يفضحها امام الجد الذي صدق انها حفيدته ووثق بها؟ هل يمكن للرجل الذي احبته ان يدمر حياتها؟ آدم اطلق على صوفي سهماً قاتلاً... ولكن سهم الحب ارتد الى مطلقه!